
الدار المصرية اللبنانية
قصص
طارق عز
موت
مع إيقاف
التنفيذ
Telegram:@mbooks90

عز، طارق.
موت مع إيقاف التنفيذ: قصص / طارق عز .- ط2.-
القاهرة: الدار المصرية اللبنانية، 2024.
160 ص؛ 20 سم.
تدمك: 6 - 455 - 795 - 977 - 978
1- القصص العربية القصيرة.
أ- العنوان. 813.01
رقم الإيداع: 2556/ 2024

الدار المصرية اللبنانية
16 عبد الخالق ثروت القاهرة.
تليفون: 23910250 202 +
فاكس: 23909618 202 + - ص. ب 2022
E-mail:info@almasriah.com
www. almasriah.com

الطبعة الأولى - الطبعة الثانية: 2024م
تصميم الغلاف الفنان: أحمد فرج

1

يا لِيلة العيد آنِستِينَا

يا لِيلة العيد آنستِينا وجدّدتي الأمل فِينا

هِلالك هَل لعنينا فِرحنا لُه وغَنّينا

وقُلنا السَّعد هيجينا على قدومك يا لِيلة العِيد

صدحَ صوت أم كلثوم الرخيم في جنبات البيت مُنبعثًا من راديو زوجتي "عائشة" الأسود الصغير، يخرج من المطبخ ليدور في أرجاء غُرف البيت كلها، كأنما يَصدُر من الأثاث والحوائط، بل كأنه الهواءُ ذاته.

فَيَصِل لكل أفراد الأسرة، صغيرها وكبيرها، ليُكمل الصورة الممتعة لتلك اللحظة التي سرقتها من الزمن!

برغم إقامتنا في القاهرة منذ عقود طويلة؛ إلا أن زوجتي احتفظت بتقاليد الصعيد حيث أضل كِلينا المشترك؛ فأصرّت على شراء تلك الشقة التي تحتل دورًا بأكمله في هذه البناية القصيرة، تُقابلها مساحة جرداء تصلُح كجراج صغير للسيارات، مُحاطة بسُور متوسط الارتفاع، يُبعدنا عن الجيران بمدينة نصر الخالية أصلًا، أما سبب سعيها وراء هذا المكان لسنوات طويلة هو تمسُّكها بتحويله لصورة بيت العائلة؛ أو البيت الكبير كما أسمته. يتزوج الأبناء وينطلقون في حياتهم، تأخذهم الدنيا والسعي وراءَ الأرزاق لشتى بقاع الأرض، لكن يظل دائمًا لهم مكان ثابت يعودون إليه.

وقد كان لها ما أرادت: بيت مُتسِع بشكل غير مُعتاد في هذه المنطقة الناشئة حديثًا، أو في الفترة الزمنية أوائل التسعينيات، وتلك كانت من المرات القليلة التي أصابت فيها زوجتي. فها هو البيت يسعُنا جميعًا: عائلتي كلها، أبنائي الذكور الثلاثة وزوجاتهم، وبنتايَ الاثنتان وزوجاهما، وأحفادي الاثنا عشر، وعلى رأس كل هؤلاء زوجتي، و"سيدة" و"نفيسة"؛ مُعاونتاها الأساسيتان في الاعتناء بهذا المنزل العملاق.

كلٌ من أبنائي وبناتي له غرفة مستقلة، بإجمالي عدد خمس غُرف تَسَع عائلاتهم الصغيرة بالكامل، تزيد عليها الغرفة الكبيرة الخاصة بـ"الست الكبيرة"؛ كما تناديها الخادماتُ، وثلاثة حمَّامات، وصالة استقبال عملاقة تتسع لخمسة صالونات، وثلاث شُرفات: اثنتان منها مُتصلتان.

بالفعل، إنه لَبيت ضخم، بل وأزيد من اللازم كما قال شريكي في العمل. وإن كنت أثق أنه على صواب، لكن قيمة البيت الحقيقية تظهر في ليالي المناسبات التي تجمع كافة أفراد العائلات الصغرى المنبثقة من العائلة الكبرى. لم يكن أي بيت أو شقة عادية لتحتمل تلك الأعداد أبدًا.

فها هي لَيلة العيد قد جمعت كلَّ أفراد العائلة من شتى بقاع الأرض للطقس المقدس الذي لا تسمح "عائشة" فيه بأي تهاون؛ ألا وهو الوجبة الأساسية التي تلمَ شَمل الأسرة. فإذا كان اليوم الأول من شهر رمضان؛ فإفطار اليوم الأول في البيت الكبير، وإذا كان عيد الأضحى؛ فبعد ذبح الأضحية، فوق سطح البيت، تُعِدُّ "عائشة"- بمساعدة كل نساء البيت- إفطار العيد من "كِبَد" و"كَلَاوي" و"فِشَّة"... وخلافه. أما إن كان مثل ليلتنا هذه في عيد الفطر، فلا بد من وجبة الغداء المكوَّنة من عناصر أساسية لا تتغير مهما دار الزمن؛ غداء قوامه البط المحمَر والرقاق والمحشي بأنواعه، لكن تسبق وجبة الغداء تلك إفطارَ الشاي باللبن والكعك والبسكويت الذي تنهمك في صُنعهما كلُّ نساء الأسرة طوال الليل، لتنتشر رائحة الخميرة والدقيق في أرجاء المنزل.

لأذهب فأطمئن عليهن. ها هي "عائشة" تفترش أرضيةَ المطبخ الفسيحة، إحدى ساقَيها التي أوهنهما النقرس أسفلها، والأخرى مفرودة مع التبديل بينهما كلَّ فترة لتفادي "التنميل"، تحوطها صاجات الفرن السوداء، تتراصَ عليها القوالب المجهزة من الكعك المعَدَ للتسوية. كم أنتِ جميلة يا زوجتي العزيزة وأنتِ مُنهمكة في التقطيع والعجن والتجهيز والتحضير! مُنتهى القوة والإخلاص وعنفوان الشباب. كأنما هربتِ من نظرات الزمن طوال تلك السنين، وكأنما لم تنجبي وتُربي كل هؤلاء الأبناء والأحفاد! ما زلتِ قوية دءوبة مُنظمة مثل الماكينة. تُغلّفين حنانكِ بأوامر صارمة عندما تصدحين بتعليماتكِ لمساعِدتَيكِ الاثنتين، وزوجات أبنائكِ الثلاثة، وبنتيكِ الاثنتين، لكن أذني لا تُخطئ تلك النبرة الرفيقة وسط الشدة ولا عينَيكِ

اللتَين تحتضنانهن جميعًا.

ولذلك العجب، رغم تأففي في كثير من الأحيان من صرامة "عائشة" مع الأبناء، وإصرارها على تلك الطقوس إلى درجة التقديس، لكن لا يسعني إلا الموافقة على قوة شكيمتها تلك المرة، فها هو عنادها قد نجح في لمّ شمل تلك العائلة المشتتة في أرجاء المعمورة تحت سقف واحد!

فالابنة الكبرى "هادية" جالسة بنظارتها السميكة وملامحها شديدة الشبه بأمها، تُدوّر ذراع ماكينة صناعة البسكويت المعدنية بمنتهى الهمة، رغم أنها طبيبة مُهاجرة إلى أمريكا من سنين، بل إن ابنتَيها تحملان الجنسية، ولكنها لا تستطيع أن تتخاذل عن العمل للحظة، وإلا رمقتها أمُّها بتلك النظرة التي تُجيدها فتُجمِّد الدم في العروق، ولن تكون تلك أعظم العواقب التي ستتحملها!

أما الابنة الأصغر "نرجس"؛ حبيبة أبيها برِقَّتها وشعرها المقصوص دومًا، فلا يستطيل بعد أذنَيها، فتُرتب أقراص الكعك الصغيرة في صفوف متوازية داخل الصاجات، تمهيدًا ليتم إرسالها لفرن الخبز المجاور أو "الفُغن"؛ كما تنطقها من جراء لسانها الذي عوجَه طولُ الإقامة في هولندا والحديث بلغتهم الثقيلة.

الخادمتان تقومان بالعجن في أوعية كبيرة بشكل مُتتالٍ بلا توقُّف إلا لتعديل خصلة شعر نافرة، أو حكة جلد عابرة تُلطّخ وجوههنّ بالعجين والدقيق.

"صلاح الدين"؛ ولدي الأكبر والأقرب لقلبي، وأكثرهم شبهًا بي بقامته الطويلة وبطنه المتدلي قليلًا الذي يفخر به ويسميه "كرش العز"، يقف بأعلى السلم المعدني ليفك نقوش زينة رمضان من الصالة. يُثبت السلم ولدي الأوسط "جمال الدين" بسِمنته المفرطة وصوته الحاد الذي يرد به على مشاغبات صلاح غير البريئة عندما يقوم بوضع المقص أو الزينة على صلعته الفسيحة، لطالما كان الاثنان يمثلان "نَاقِر ونَقِير" المنزل، لكن بطريقتهما اللطيفة. أذكر تلك المرة التي أعجبتني أنا شخصيًا- رغم تصنُّعي الغضب وقتها- عندما أخفى "جمال" بنطال وحذاء "صلاح" في يوم زفافه؛ مما أدى إلى تأخره ساعة كاملة عن موعد عقد القِران، وكانت القاضية عندما حضر "جمال" لقاعة الفرح وهو يرتدي البنطال والحذاء المسروقَين!

فاحتقن وجهُه وكاد أن يقلب الفرح لمعركة، لولا أن أصدرت "عائشة" حُكمها

القاطع، فذهب الأخان إلى المرحاض وتبادلا الملابس هناك؛ مما نتج عنه ملاحظة يراها المدقق في ألبوم صور ذلك اليوم؛ يجد أن العريس يرتدي حذاءً وبنطالًا مختلفين بعضهما عن بعض!

لم ينقطع كل منهما عن صُنع المقالب في الآخر، حتى وهما في هذه السن، ومتزوجان، وكل منهما أنجب من الأطفال ثلاثة.

يتبقى الانطوائي الأصغر، محبوب الأطفال "نادر"، بشكله المتطابق مع أخيه الأكبر، ولكنته العربية المكسرة المطعمة بالأمريكية؛ بسبب إقامته هو الآخر في بوسطن، وعمله كأحد مهندسي أجنحة مكوك الفضاء في وكالة "ناسا" الفضائية، رغم وصوله من المطار لتوِّه بصحبة زوجته وولدَيه لكنه أصر - قبل تغيير ملابسه حتى- على توزيع هدايا العيد على أحفادي المتجمعين حوله؛ فكسر التقليد المعتاد بأن ينقد الأطفال "عيدية" مالية، وأحضر معه هدايا مخصوصة لكل طفل لا تُشبه هدية الآخر. كان مُبرره دومًا لذلك أن أبا الطفل أو أمه سيتحصلان على المال لادّخاره - وهو مُهم للمستقبل - لكن الطفل لم يشعر ببهجة العيد المخصوصة. قُربه الشديد من فهم تفكير الأطفال ربما كان سببه هو انعزاله أثناء طفولته هو نفسه، وميلاده خلال فترة كنت أمُر فيها بضائقة مالية استمرت لسنوات؛ فلم يظفر من الألعاب والهدايا إلا ببقايا أخوَيه الأكبر منه، أقول ربما لهذا السبب يُفضِّل أن يجد الأطفال دومًا ألعابًا جديدة تُتيح لهم طفولة سَوِيَّة، فيساعدهم على الانطلاق والتجريب بلا تخريب. رأيته قبل أن يصعد إلى البيت ينقد سائق العائلة "عم حسن" العجوز الطيب مَبلغًا مُحترمًا من المال؛ ليجلب لهم مخزونًا ضخمًا من المفرقعات والصواريخ الصفراء الصغيرة محلية الصُّنع. لم تُغيره الإقامة في أمريكا والتربية الحديثة وأولوية سلامة الطفل، يُصر على الاحتفال حتى الثمالة ولكن تحت إشرافه الصارم لتجنُّب إصابات غير مرغوبة.

مَقولته الدائمة كانت:

أنا الألعاب والمرح والإثارة، أما الأوراق النقدية الجديدة والعيديات فعلى الأخوين الأكبر المملَّين!

تمر عائلتنا الآن بفترة رخاء اقتصادي ملحوظ؛ فبعد تلك الأزمة الطاحنة التي مررتُ بها حدثت الانفراجة، قابلت زميل دراسة قديمًا بالمصادفة في إحدى

المصالح الحكومية ودارت عجلة النقاش عن الأحوال، فصارحته بما أنا فيه، وهنا لمعت الفكرة في رأسه: هو يمتلك من المحال التجارية الكثير، ويحتاج إلى واجهة يتستر خلفها ليتهرب من الضرائب، فعرض الشراكة مقابل أجر متواضع نسبيًا، وافقت على الفور، لكن عندما بدأت في مباشرة عملي والذهاب كمالك لبعض المحال- بشكل صوري- لاحظت بعض التطويرات البسيطة الممكنة في نظام التخزين والمحاسبة، عرضتها عليه فأعجبته، فاستجاب، وكان المردود فائقًا للتوقعات، بأرباح مباشرة نتيجة خفض التكاليف، بدأ في تكليفي بمهام حقيقية وُفقت فيها كلها فزاد وزدت، ويومًا ما أقر أن لديّ موهبة فطرية في التجارة، وعرض مشاركته بشكل حقيقي، فوافقت، وخلال عدد محدود من السنوات تضاعف حجم العمل حتى اقترب من التحول لكيان اقتصادي حقيقي، انعكس ذلك على بحبوحة المعيشة، فامتلكت من المنازل بيتنا هذا وآخر أصغر في الإسكندرية، ومن السيارات ثلاثًا، وأردت تعويض أبنائي عن فترات الضنك، فحددت لهم راتبًا شهريًا رغم أن كلًا منهم مستقل ماديًا، وأغدقت على أحفادي من حناني ومالي.

أفقت من خواطري بسبب فضول حقيقي يتملّكني لاستكشاف هدايا "نادر" لأطفال العائلة.

ها هو يجلس القرفصاء على الأرض، تحاوطه الحقائب من كل جانب، ويقف أمامه الأطفالُ بترتيب معكوس من الأصغر إلى الأكبر، طالما أحسست بتفضيل "نادر" لآخر الأطفال من كل العائلات، بالتأكيد السبب يعود لأنه هو نفسه كان آخر أطفالي، وأقلهم حظًا، فيتعاطف مع مَن يماثله غريزيًا.

انطوائيته الشديدة انعكست على قوة ملاحظته، فكان يُحلّل طِباع كل طفل: ما يُحب، ما يكره، ما يفضّل، ما يبغِض، هواياته وأحلامه، ومن ثَمّ يفاجئه بإحضار الهدية التي تلائمه بالضبط كأنها خُلقت من أجله، فتكون سعادة الطفل مضاعَفة. مرة بسبب تفكير عمّه فيه، ومرة بسبب تماثلها مع شخصيته، حتى لو كسرت القوالب الجامدة المحضرة مسبقًا لهدايا الأطفال؛ الولد مُسدس أو زيّ عسكري، والبنت دُمية أو فستان.

الأطفال تتحرك تجاهه في نظام هندسي محفوظ، علامات الترقُّب ترتسم على ملامحهم، الكل مُتحفز لهدية يعلم بحكم التكرار أنها ستثيره لأسابيع قادمة. يتقدم

الطفل يتسلم اللفافة الملونة بلونه المفضل، وقبل أن يهرع ليفضّ الغلاف البراق يحتضن عمّه بحُب حقيقي لا تشوبه شائبة طمع؛ فهو قريب منهم بشكل غير طبيعي. وبالرغم من تجاوزه الثلاثين، إلا أنه ما زال مُنغلقًا على الكبار، مُنبسطًا مع الأطفال، ينسى منصبه ونضوجه ويتحوّل إلى طفل يُماثلهم، يتماثل بتفكيره مع قُدراتهم الذهنية، يتفهّم خلافاتهم واختلافاتهم.

ما إن ينتهي من توزيع الأنصبة، حتى يندمج معهم بكل كيانه. يفتح لهذا هديته، يشرح لتلك كيف تستفيد من خاصتها لأقصى حد، يُنظم بينهم الألعاب المميزة التي تُقربهم ولا تُذكي روح التنافس بينهم. لمحت "عائشة" تراقبه من بعيد وهي تقف شامخة مُنتصبة الهامة رغم سنواتها التي أثقلت ظهرها، يداها مُشمَرتا الكُمَين مُلطختان بالعجين، دامعة العينين!

لم ألتفت إلى دموعها، فذلك هو دأبها طوال عمرنا: تحزن فتبكي، تفرح فتبكي، يموت أحد الأقارب فتبكي، نزوّج أحد الأولاد فتبكي! لطالما كانت الدموع الصامتة وسيلتها في التعبير عن عواطفها الجياشة التي لم تتعلم التحدث عنها بالكلمات. تُجيد إخفاء المشاعر وتُظهر الوجه الصلب القاسي، لكن عندما تختفي عن الأنظار أضبطها متلبسة بالجرم المشهود؛ دموع الحب.

دموع مَن لم تتعلم التعبير بالكلمات فاكتفت بالعَبرات.

تُلاحظ أن وقفتها طالت، وقد يلمح أحدهم جانبها البشريّ الذي تحاول إخفاءه طوال عمرها، فتستدير لتمسح وجنتيْها بظهر يدها وتصدح بالمزيد من الأوامر؛ ارفعوا صوت الراديو، وزّعوا الحلوى... إلخ إلخ.

نادت على ابنتها الكبرى وكلّفتها بمهمتها السنوية المقدسة: الظروف المغلقة التي تحوي الزكاة (أو الصدقات) حسب الموسم، وإعادة توصيتها بالكلام المكرّر عن تحري الدقة في توزيع المال وعدم الانخداع بالمظاهر.

أما الكبيرُ، فتكون مسئوليته توزيعَ الصدقات العينية على مُستحقيها، والتي تختلفُ بحسب طبيعة الموسم؛ في عيد الأضحى تكون كميات ضخمة من اللحوم المتنوعة، التي ينتقيها من أجود البهائم بعد رحلة إلى قرية بعينها لا تُطعِم حيواناتها إلا كل ما هو طبيعي، يُحضرها محمولة على عربة نقل لتعيش فوق

سطح المكان لفترة من الزمان، نُراقبها ونطمئن على صحتها، حتى يحين أوانُ الذبح.

ألتفتُ من خواطري على صوت صخب مرح يصدر عن الأطفال، مثل كل مرة تحدث فيها تلك التجمعات العائلية التي تُعيد الحياة لهذه الشقة المقفِرة، ضجيج لطيف لا يؤذي العين، ويُبهج الأذن، انقسموا لفريقَين وانطلقوا لكل أرجاء المنزل يُطلقون النار على بعضهم البعض، ويُمثلون السقوط فالقيام لمعاودة الحرب.

كلهم انضمَ للعب، يتتبعهم "نادر" بكاميرا كبيرة يحملها على كتفه، يُسجل عليها قدر ما يستطيع طِوال فترة الإجازة، حتى تؤنسَ غربته في طول البعاد كما يقول. كلهم انضم إلا "محمد"؛ حفيدي الأكبر، هاوي التصوير الفوتوغرافي، انتحى جانبًا وتسلَّل دون أن يشعر به باقي الصاخبين بخفة، لكنني لمحته، انسلَّ إلى جزء مُظلم نسبيًا من صالة المنزل الفسيحة، حائط عملاق خالٍ من أي زخارف أو لوحات لمناظر طبيعية، خصصته زوجتي لصور العائلة فقط، تتناثر عليه بنظام محدد سلفًا صور لكل رجل وسيدة وطفل ينتمي لهذه العائلة، مُرتبة من أصغرها الرضع حتى كبارها.

تقدم "محمد" من الصور وهو يحمل هديته؛ كاميرا تصوير فورية حديثة، لا يوجد منه في البلاد إلا عدد محدود يُعَد على أصابع اليد الواحدة، يُمسكها بتقدير واضح ويُقدمها ببطء صوب الصور المعلقة على الحائط، بعينَين مُغرورقتَين بالدمع تحدَث لإحدى الصور:

"جئتُ لأريكَ هديتي، فأنتَ أول مَن شجعني على تتبُع هوايتي، ومدح جودة صوري، لَكَم تمنيتُ أن تكونَ أولُ صورة بتلك الكاميرا هي لك".

رفع يده وقرَّب الكاميرا بشدة نحو صورة بالأبيض والأسود، يُزين جانبَها الأيمن شريطٌ أسود، وأكمل بصوت مُختنق بالعَبرات:

"لكَ أنت، يا جدي!".

... وكانت هذه.. صورتي!

2

كلُّ الوحدات ترى البحر

- صباح الخير، أخبارك يا "حامد"، أحسن؟

- الحمد لله يا دكتور.

- نُكمل؟

إيماءة بالرأس مُترددة.

- اتفقنا ألا تخاف، ما فات مات.. نحن نُساعدك للقادم.

إيماءة أخرى أقل ترددًا.

- نُكمل أم نبدأ من البداية؟

***

حامد

كبرت لأجد نفسي بين أقراني في نفس المكان، لا أعرف لي أصلًا أو سكنًا غيره، منطقة وسيطة تقع بين المناطق الفاخرة التي نسمع عنها في الساحل الشمالي والمناطق القديمة في العجمي. مكان يُسمَى "أبو ثلاث" ولا أعرف سبب التسمية، لكننا وجدنا الناس كلهم يُسمونها كذلك فأكملنا معهم، شواطئ رملية كبيرة تصل حتى العمار، معظم أبنيتها تحت الإنشاء، يعمل بها العُمال (الأُجرية) من الصعيد في الشتاء فقط، أما في الصيف فهي مَنفذ للفقراء من الراغبين في بعض البحر والرمل وقليل من رائحة المصيف. يحضر إلينا أب يُجرجر أطفاله وأمهم الملتحفة بالسواد ليؤجَر إحدى "العِشَش" التي نسكن فيها.

نعم؛ فأسرتي وكل معارفي هم من العُمال الصعايدة الذين استثقلوا الذهاب والعودة كل صيف إلى بلداتهم الأصلية، ففضَلوا البقاء هنا بجوار لقمة العيش، لم نعلم مَن أقام العِشَة الأولى من الخوص وجريد النخيل المدعم بعروق الخشب وبقايا مواد البناء المتخلفة من عمارة تحت التشطيب، لكنها بُنيت وظهرت بجوارها

أخرى فأخرى، حتى تكوَّن ما يشبه قرية صغيرة من عِشَش الخوص. تسكن عائلة كاملة في كل عِشة مهما كبر حجم تلك العائلة أو عدد أفرادها. ولأننا جميعًا من الصعيد، فتجدنا نحمل بعض الأصول المشتركة بالرغم من اختلاف المحافظات التي أتينا منها. بعضنا من "قنا" أو "سوهاج"، والقليل يمتد حتى "الأقصر"، لكن يجمع بيننا الدمُ الصعيدي الحامي والطباع صعبة المِراس التي لم تُلينها السكنى في "بحري"، وأكثر تلك الطباع تأصُّلًا وأهمها.. هي التكاتف.

(ملحوظة من الطبيب: هنا شبَّك حامد أصابع يديه معًا).

كلنا نحمي بعضِنا البعض، فرحنا واحد.. ومُصابنا واحد.

لذا عندما يهلّ علينا ذلك الأب بصحبة أحد رجالنا مُحترفي السمسرة ليُسلمه لرجل آخر يملك عِشَّة بسيطة ليستأجرها ويقبض منه الحلوان، تجدنا نُعيد توزيع أنفسنا على باقي العِشَش حتى يُمكننا استيعاب الأسرة التي أخلت المكان للمصطافين.

من بعدها تنفتح لنا كأطفال أبوابُ الرزق البسيط، فتصبح مهمة أطفال المكان المستأجَر دون غيرهم تلبية طلبات الساكن الجديد البسيطة، وشراء حاجياته الأبسط مقابل إكرامية متواضعة الكل بها يتراضى. الرجل يبرز أمام أسرته الفقيرة أصلًا كم هو مِعطاء ولا يبخل عليهم أو على مَن يخدمهم، ونحن نتحصَل على مبالغ بسيطة تضمن لنا بعض الحلوى محليّة الصُنع "الفريسكا" أو أكواز البوظة، مع الجري هنا وهناك لجلب الطلبات ثم النوم مُنهكين آخر اليوم بجوار أصدقائنا فلا تضيع علينا فرصة للعب ليلًا أو نهارًا.

أما أبي "راضي"، فلا يتخصَص في نوع معين من البناء، بل يعمل كأجير باليومية. بعض الأحيان يساعد في رفع أجولة الأسمنت على السقَالات، يهدم جدارًا، يدق مسمارًا، يزيت منشارًا... وغيرها مما لا يتطلب تعلُّم الحرفة منذ الصغر، فقد نشأ كمُزارع ابن مُزارع. يمتلك "الأطيان" كما حكى لنا مرارًا، وكنا لنصبح نحن بدورنا كذلك لولا دورة الزمن التي جارت على جدي فأكلت الأخضر واليابس، فاضطُر أبي للنزوح لِهُنا هربًا من ضيقة الحال التي ضربت بلدتنا كلها.

ظل على هذا التنقل بين الحِرَف حتى أقعده داءٌ أصاب ظهره فلم يعد يقوى على

العمل الشاق.

(ملحوظة من الطبيب: من وصف حامد، أعتقد أنها مشاكل في الفقرات القطنية بالعمود الفقري).

توسط له بعض قدامى سكان المكان عند أحد أصحاب العمارات التي لم تكتمل، فعمل بها خفيرًا بسيط المهام، يُغطي أجولة الأسمنت بالمشمع العازل في الليالي المطيرة حتى لا يفسد، يُحضر فطور العمال ظهرًا مع أدوار الشاي المتلاحقة على "راكية" الحطب وغداءهم بعد أذان العشاء، الحراسة وبعض المشاوير والقليل من السمسرة.

ظل الحال على ما هو عليه؛ نُقيم أنا وأبي بعد وفاة أمي في عِشّتنا، يومنا مثل أمسنا يطابق غدَنا، حتى أتى ذلك اليوم المشئوم! استيقظنا ذات صباح لنجد المكان يعجّ بمعدات حفر وبناء ضخمة متطورة تختلف عن تلك التي كان يستخدمها المقاولون في منطقتنا! يصحبها فريق من المهندسين يرتدون خوذات وملابس فسفورية لامعة، تتقدمهم عربات شرطة مُحمَلة بجنود الأمن المركزي. انتشروا في لمح البصر ثم توقَّف الجميع في مكانهم في صمت من بعد صخَب؛ فقد كنا نعترض وكانوا يُهدَدون، كنا نسبّ وكانوا يردون السباب.

وصلت سيارة سوداء، زجاجها أسود، عجلاتها سوداء، نزل راكبُ مقعدها الخلفي المرتدي الأسود عندما فتحَ له الحارسُ صاحب البذلة السوداء هو الآخر. نزل بتؤدة يمسح عرقه الغزير عن ذقنه اللحيم بسبب حرارة الشمس المسلطة على رءوس الحضور، أو ربما بسبب ما أتى ليقوله لنا!

فقد قال وأعاد، ولفَ الكلام وأداره، وكل حديثه يتلخص في أن الحكومة قد قررت إزالة عِشش الخوص التي نسكنها. تقليل مساحتها، بل وإبعادها للداخل عن البحر لمسافة كبيرة حتى يُبنى مكانها عمارات موحَدة اللون كبيرة، ثم يتم تسكيننا فيها عندما تنتهي، وبَيع الباقي للمواطن محدود الدخل.

اختلفنا في تقبُلنا لكلامه، بعضنا تفاءل وقال في نفسه القليل من شظف العيش والتسكُع عند أهالينا في بقية العِشش حتى ينتهي البناء وننتقل للبحبوحة، لكنهم كانوا قلة، أما الأغلبية، فقد تشاءموا وقرروا هجر المكان بالكامل. انقسموا؛ نصفهم

شدّ الرحال إلى قرى الساحل السياحية الفخمة؛ لعلهم يجدون فيها سبيلًا للعمل بمعاونة أحد "بلدياتنا"، والبعض الآخر قرر الذهاب إلى "العجمي" و"البيطاش"؛ فلهم فيها قريب من هنا أو معرفة من هناك، تضمن لهم حياة شِبه مستقرة حتى نرى هل ستصدُق الحكومة أم لا، أما القسم الأخير منهم، فعاد أدراجه للصعيد وفضّل التسول في بلاده عن التلطُم في الغربة.

ومن هنا تشرذمت الجماعة وتفرّق الحشد، لكنّ أبي فضّل البقاء ونجح في التمسك بعشتنا البعيدة عن البحر كإحدى العِشَش المحدودة الباقية بعد الإزالة. سكنا فيها أنا وهو لفترة من الزمن، بدأت فيها أعمال البناء التي لا تتوقف في طرح ثمار النتائج، من قواعد وأعمدة وسقّالات، فاستبشر أبي بقراره الحكيم.

لكن بعد ذلك بشهور من الهدوء، تقدمت مُعدات الهدم صوب العِشَش المتبقية، ومعها نفس الجَمْع من مهندسين وشرطة، تبعتهم نفس العربة السوداء المشئومة، نزل منها نفس السيد الفخم صاحب السطوة والكلمة المسموعة.

وأيضًا قال وأعاد، ولفَ الكلام وأداره، وكل حديثه يتلخص في أن باقي العِشَش مصيرها المحو، فتلك الأرض دخلت ضمن مشروع مشترك بين الحكومة والقطاع الخاص لإنتاج وحدات سكنية اقتصادية مختلفة عن الأولى، مخصوصة للمصطافين محدودي الدخْل، بأسعار تبدأ من مليون جنيه فقط!

ولما بدأت البقية الباقية من السكان في التذمُر والصياح، بادرهم هو بالصياح بصوت أعلى مُطمئنًا أننا سنُعوّض بمبالغ مالية محترمة تضمن لنا عيشة كريمة. أنهى كلامه وانصرف في عربته السوداء مُثيرًا الغبار في وجوهنا، بعدما أمهلنا أيامًا معدودات وبعدها سيتم مَحونا بالقوة.

مرّ اليوم على أبي واجمًا لا يتكلم ولا يأكل بل يتآكل، ويُدخن تلك السجائر الطويلة واحدة ملتحمة بالأخرى، وعلى وجهه سِمات التفكير العميق، عندما حلّ المساء مرّ علينا أحد أقربائنا المقيمين معنا في عِشة بعيدة نسبيًا، جلس هو وأبي بالخارج يُدخنان ويتناولان أكواب الشاي المتتالية بلا انقطاع وتتعالى نبرة نقاشهم الحادة، خرجت معها لأستطلع ماذا هنالك!

جلستُ على مبعدة منهم، ولكنني قريب بما يكفي لأسمع كلامهم، أو للدقة

كلام الرجل الذي كان يُعيد على أبي ما علمه على مدار اليوم بعد التقصي وجَلب المعلومات من هنا وهناك.

الأرض ستخلى باللين أو بالعنف، فالقطاع الخاص المشارك للحكومة في المشروع الجديد هو شركة يمتلكها من الباطن ثريَ ابن مسئول كبير يرغب في إقامة فرع جديد لنفس المشروع الناجح الذي سبق له افتتاحه في "مرسى مطروح".

ويستعين بمجموعة من بدو مطروح كانوا يضعون أيديهم على أرض المشروع هناك، فأغراهم بِالمال وتعاون معهم وأصبحوا قوته الضاربة فأتى بهم سرًا إلى هنا، وهم لا يحملون أوراقًا ولا تعرف عنهم الحكومة شيئًا، يحكمهم قانون القبائل والعشائر الموالي كبراؤها للمسئول إياه.

وهم مَن سيتولون إخلاء العِشش بالقوة في حالة رفضَ السكان الرحيل، عندها لن تتدخل الحكومة؛ فهذا سيُعتبر نزاعًا محليًا أو أهليًا يُحل بالعُرف لا القانون.

أنهى كلامه بعدما نصح أبي بقبول التراضي والاستفادة بالمبلغ ثم رحل، تاركًا أبي على جلسته يُفكر ويُدخن، حتى مرّ الفجر وأتى الصبح ومعه عاملان من المشروع الجديد، دقًا عمودَين من المعدن يحملان لافتة ملونة عليها تصميم مبدئي للمشروع الجديد، كُتبتْ عليها كلمات قرأها لي أحد أصدقائي المتعلمين، لا أذكر منها إلا:

بادر بحجز وحدتك.

كل الوحدات ترى البحر.

ألقى أبي بعض الماء على الحطب المخصص لصنع الشاي، وقام من مجلسه وعلى وجهه ملامح مَن اتخذ قرارًا مُجبرًا عليه. غاب بعدها عدة ساعات وعاد مُحملًا بكيس بلاستيكي أسود اللون ملفوفًا حول نفسه يضمه إلى صدر جلبابه بحرص، أخبرني أننا سنعود لديار أهلنا في الصعيد، وبذلك المال الموضوع بالكيس سنشتري "قيراطًا من الطين" فأرضنا أولى بنا، ثم أمرني بعدها أن ألملم حاجياتنا البسيطة استعدادًا للرحيل المبكر في الفجر.

فعلتُ ما قال وذهبتُ للنوم تُبلِّل الدموع وجهي على فراق الأحبة.

(ملحوظة من الطبيب: بداية من هذه الفقرة تهدَّج صوت الطفل، وأصبح تفسير كلماته عسيرًا).

لكن ما إن أغمضت جفوني حتى قمت مفزوعًا على أصوات صراع وصراخ وتهشم لجنبات العِشة، حيث اقتحم المكان مجموعة من الرجال الملثمين يحملون بنادق آلية ويتحدثون بلكنة غريبة على أذني، هدَّدونا بالسلاح وأمروا أبي بتسليمهم المال بصوت واثق كأنهم مُتأكدون من وجوده. غلت الدماءُ الصعيدية في عروقه، فانقضَّ عليهم يصرخ فيهم ويحاول تمزيقهم بأظافره وأسنانه.

هاج وماج وصرخ بكلام كثير عن سرقة كل ما يملك، ولما تكالبوا عليه استعطفهم بعدما أركعوه على ركبتيه وقيدوا ذراعَيه وراء ظهره. استعطفهم أن يتركوا له القليل الباقي حتى يستطيع الإنفاق على مَن بقي من عائلته؛ وهو أنا.

أما أنا، فقد كنت مُختبئًا أسفل السرير الخشبي المتهالك، تنهمر دموعي بحُرقة على أبي الذي قهره العجز وتكالب عليه الكلاب، أضع يدي على فمي لأقاوم الصراخ، لأقاوم الألم، لأقاوم الشهيق، حتى لا يُدركوا وجودي وينالني ما ناله.

لكن صوتي خانني!

خانني عندما دوَّى في فضاء الحجرة صوت الصفعة التي رنَّت على صفحة وجه الصعيدي المهزوم، فعرفوا مكاني، قلبوا السرير وجرجروني من ثيابي فمزقوها، ووضعوا فوهة البندقية في جبهتي وهدَّدوه من جديد.

بدأ يلين وعاد للاستعطاف بعدما فارت الدماءُ الصعيدية في عِزقه من جراء الصفعة، وبعد المقاومة والصراخ بللت الدموعُ لحيته لكنه تمسَّك بآخر أمل في أن يتركوه مع النقود بسلام. هنا أشار أحدُ الملثمين للآخر الممسك بي بطريقة معينة لم أفهمها، لكن فهمها زميله، فأكمل تمزيق ثيابي حتى صرت عاريًا وبدأ يعبث في جسدي من الخلف!

تعالت صرخات أبي ونشيجه الخليط بين التهديد والرجاء، لكنهم صمتوا واستمروا في مراقبة زميلهم وهو يندمج فيما يفعله معي، بعد هنيهة صاح مَن بدا

ككبيرهم بلكنته الغريبة:

انطق بمكان المال وإلا قلبنا لك المحروس "خزمَة".

عندها انهار "راضي"، وأصبح راضخًا، فنطق بالمكان المدفونة به الأموال. ذهب اللصوص لاقتلاعها ولكن مَن يكبلني لم يتركني، بل تمادى في لعبه بأجزائي. ثارت ثائرة الوحش المكبَل بعد نحيب، وكاد أن يمزق قيوده غضبًا على ولده المغتصَب، فانقض زعيمُهم عليه بدبشك البندقية بضربة قوية لمؤخرة رأسه فارت معها الدماءُ القانية، لم أحتمل المنظر فمادت بي الدنيا.

(ملحوظة من الطبيب: بداية من هذه الفقرة تحوَّل كلام الطفل لبكاء تفصله كلمات قليلة، مع التأكيد على احتضانه لنفسه طوال باقي الجلسة والتمسيد المستمر على نصفه السفلي).

أفقتُ لأجد نفسي مُلقًى على الرمال التي تملأ فمي، مُغطى ببعض الخِرَق البالية عاريًا من أسفلها، وأشعر بألم رهيب في نصفي السفليّ، صرختُ أبحث عن أبي، لكني لم أجده، لكن وجدت عم "صابر" بائع "الفريسكا" العجوز يُمسك بي ويُهدِّئني شارحًا ما حدث.

كل مَن استلم ماله رحل عن المكان في نفس الليلة كما لو كانوا يعلمون ما سيحدث، عصابات البدو التي أحضرها البك الكبير طمعت في زيادة دخلها، فرصدت كل مَن حصل على المال وتقاعس عن الخروج، وعندما جنّ الليل هجموا عليهم في نفس التوقيت، سلبوا المال وأخرجوهم بالقوة. وأكمل بعدما طأطأ رأسه ليهرب من عيني، ومَن قاوم عاقبوه في أحد من أسرته أو... ولده!

سألته عن أبي، فأشار أنه أفاق قبلي ببرهة وجيزة، وقام يجري باكي العينين بعدما أدرك ما جرى لي صوب موقع حفر المشروع الجديد. لملمتُ الأسمال حول جسدي كيفما اتفق، وقمت أهرول لألحق به بقدر ما قدرت على تحمُّل الألم الصاعد من نصفي السفلي والدمع يغمر عينَيّ ويُشوِّش الرؤية.

لمحته من بعيد يضرب لافتة المشروع الجديد بعصا غليظة يحملها ليُسقطها وهو يصيح بكلمات شوّهها ريح الفجر البارد، ثم استدار صوب البحر وأنا في أثره أنادي عليه فلا يسمع.

خاض في الماء المالح بكامل ملابسه، وأنا أحاول اللحاق به، أسقط وأتعثر وأقوم والألم الممض يتصاعد مني حتى لمحت دماء تنزف على فخذي فلم أبالِ، كان كل همي اللحاق به.

صرخت.

وصرخت.

لكنه لم يسمع.

حاولت مُجاراته لكن الألم وصل للقدر غير المحتمل، فبركت على رمال الشاطئ متقطع الأنفاس مبحوح الصوت دامع العينين.

أستمع لآخر كلماته التي حملها لي ريح البحر الذي تجاوز ماؤه المالح صدرَ الـ"راضي":

كل الوحدات ترى البحر.

كل الوحدات ترى البحر.

كل الوحدات ترى البحر!

***

عرض حالة

السيد المحترم مدير مستشفى الأمراض العقلية والعصبية.

رئيس قسم نفسية الطفل

تحية طيبة وبعد.

مقدَم لكم تقرير من واقع كلمات الطفل "حامد راضي السيد" المحوَل لنا من نقطة... بعد الحادث المذكور في محضر شرطة رقم .... (مرفق صورة المحضر).

بعد عدة محاولات لتهدئة الطفل المذكور، وجلسات متكررة، مع اتباع استراتيجية العلاج الموضحة من قِبَل سيادتكم، استطعنا استخلاص السابق، ولم نتدخل إلا لتنقيح وتعديل الأحداث ووضعها في سياق رسمي يوضَع بين أيديكم

لاتخاذ اللازم.

"تم إرسال نسخة طِبق الأصل للنيابة العامة"

***

توقيع

طبيب معالج

....

ملحق

بيان النيابة العامة

بشأن واقعة وفاة المواطن حسين أبو الليل الأبيض

حيث ورد إلى النيابة العامة تقرير مصلحة الطب الشرعي بشأن إجراء الصفة التشريحية على جثمان القتيل حسين أبو الليل الأبيض؛ والذي أثبت أن سبب وفاته هو عدة طعنات بالغة حادة في أماكن متفرقة بالظهر والعنق، وما أحدثه من نزيف حاد وفشل تنفسي حاد وتوقف لعضلة القلب، وأن الوفاة مُعاصِرة للتاريخ الثابت بالتحقيقات.

هذا، وكانت النيابة العامة قد استكملت التحقيقات بسؤال شاهد عِيان الواقعة "صابر أيوب يوسف"؛ الشهير بـ"صابر فريسكا"؛ حيث شهدَ بعد الاستجواب المطوَل بإبصاره الطفل "حامد راضي السيد" ظهيرة يوم الوفاة يسحب "مطواة قرن غزال" يمتلكها والدُه المنتحر حديثًا ويتجه صوب مكان تجمع بدو "مرسى مطروح" المقيمين بالمنطقة لحراسة مشروع "..." الإسكاني، حاول اللحاق به لكن اعتلال صحته منعَه.

وبسؤال اثنين من المرافقين للمتوفَى؛ حيث شهد كلاهما بقفز الطفل على ظهره وإصابته بعدة طعنات في أجزاء متفرقة من الجسد، بعد محاولة الفصل بينهما وإسعاف المصاب تبيَن لهما مفارقته للحياة.

ملحق 2

بيان النيابة العامة

بشأن واقعة وفاة المواطن حسين أبو الليل الأبيض

بعد الاطلاع على تقرير مصلحة الطب الشرعي، وعرض الحالة المقدّمة من مدير مستشفى الأمراض العقلية والعصبية عن الطفل "حامد راضي السيد"، يأمر النائب العام بعدم مُبارحة المتهم "دار رعاية الأحداث" لحين بلوغه السن القانونية، واتخاذ المحكمة معه ما تراه من إجراءات، مع التأكيد على عدم قانونية نشر صورة الحدث (الطفل)، وإدخاله ببرامج تأهيلية لإصلاحه.

3

تساؤل

بوجداني سؤال يتردد:

"هل لمثلي نصيبٌ من حُسن الخاتمة؟".

يناير البارد، الإسكندرية عجوزنا الفتية، شوارع مهجورة من البشر، مسكونة بالصقيع والريح العاصفة، نوة رأس السنة تُرسل أمطارها مِدرارًا على الرءوس، أختبئ أسفل لافتة محل العصائر الشهير، يغتصب النهار عُذرية الليل فيلطخ اللونُ الدموي سمائي، جفَت الأنهار السائلة من السماء واقترب النهار ومعه اقترب رحيلي.

لكن لا ضَير من بضع دقائق إضافية، لعل الرزق يأتي.

أنفث دخان سيجارتي في الهواء، فأضيف للشبورة قليلًا من البخار وكثيرًا من الكآبة، ليس بالموسم الرائج لعملي مطلقًا، أضم معطفي على جسدي بحُكم العادة لا أكثر، فالطقس المثلج لم يعُد يؤثر في جسدي، فقد اعتاد أحدنا على الآخر.

أعدل هندامي المتهالِك، أسوّي شعري الطويل وأزيل أحمر شفاهيَ الرخيص؛ فقد أوشك الليل على الموت وبدأت قيامة النهار. يبدو أنها ليلة أخرى بلا جدوى ولا طعام. أطرح أنفاس سيجارتي الأخيرة أرضًا وأسحقها بحذائي البالي مُطلِقة غابات الدخان، مصحوب بلهيب حنقي وخيبة أملي، وأهمّ بالانصراف.

لكن تتوقف تلك السيارة الأنيقة في منتصف الطريق، مثيرة حولها المزيد من الضباب. ينفتح بابها، يترجَل عجوز فاخر يتظاهر بإشعال سيجارة فاخرة، ولكني أدرك أنه يُطالعني بجانب عينه؛ فقد اعتدت تلك النظرات المتفحصة لكل مَن احترف التعامل مع مهنتي. يحاول التظاهُر بالثقة إلا أنه قَلِق، لربما هو مُستجد، يتقدم نحوي بخُطوات متوترة، يريد مني سلعتي الوحيدة.. لكن مني أنا؟

إنه يبدو ثريًا، بل أكثر ثراءً من منطقتي بأكملها. يستطيع بالقطع قضاء الوقت مع مَن هي أكثر جمالًا ورشاقة وعذوبة مني! لكني بحُكم طبيعة العمل واختلاف طِباع البشر اعتدت غرابة الأطوار. لربما كان يحب الفقر والشقاء والبؤس

مُجتمعين!

لا يهم، فلولا اختلافُ الأذواق لمتُّ جوعًا. الآن يتقدم.. يتفاوض.. نتفق.. أركب إلى جواره...

يسود صمت مُوحٍ، تنتشر أنفاسه ثقيلة من وطأة التدخين والسن، أو ربما مرض صدري ما... لا يهم.

أكاد أشم رائحة الأدرينالين تنبعث من عروقه، قطرات العرَق تحتشد على منابت صلعته الواسعة وأعلى شاربه الكثّ رغم برودة الأجواء، فهو مُستثار لأقصى مدى، متوتر لأقصى حد. الغريب أنه لا يُقدِم على شيء؛ فالمُعتاد أن يطمع الزبون بدفعة مقدمة أو عينة مجانية للتجربة، كما أنه لا يتظرف أو يلعب دور زير النساء!

أشعر بالريبة؛ فنظراته الجانبية عجيبة، لكأنما يخشى مواجهتي! أذنه محمرة كطفل لوّث ملابسه ويخشى تقريع أمه. الاضطراب يرسم بصمته على ملامحه المتغضنة، ينظر أمامه بثبات كأنه يتحاشى نظراتي!

يوقف السيارة بقدر من الرعونة أمام بناية فاخرة بمنطقة رشدي على البحر، يقول مقتضبًا وهو ما زال يُحدق للأمام: "وصلنا".

نترجل معًا، الرياح تعبث بملابسي، ورذاذ البحر يُحيل الرؤية إلى رفاهية بعيدة المنال. الطقس في هذه المنطقة يُعاديني بشكل شخصي، أزيد إحكام معطفي وأعدل نظارتي الشمسية المقلدة، فهي مهمة لإخفاء الملامح، ندخل البناية بحذر القطط برغم أن البواب يغفو في سلام كالأطفال بصوت غطيط مَسمُوع للأسماك، يسبقني صاعدًا الدرجات القليلة المؤدية للمصعد بدون أن ينظر للخلف، أرى أذنه تزداد في الاحمرار، إن كان هذا ممكنًا، ننطلق بالمصعد للأعلى!.

يدس يده في جيبه، يُخرج سلسلة مفاتيح، بيد مرتعشة من الانفعال يفتح باب الشقة الأنيق، ندخل معًا ثم يغلق الباب ورائي. يضيء المصباح رغم ضياء الصباح الذي غمرَ المكان، ورغم تأفُّفي من النور.

لا أرى الطعام والشراب المسكِر صِنوَي مهنتي العتيدَين، لكنه يقرأ نظراتي فيقول باختصار: "الطعام بالمطبخ". أتحرك في حيرة خفيفة من المساحات الغريبة على

قدمي، فيشير لآخر الرواق. أهرع لإحضار المطلوب لأن جزءًا من تفاصيل مهمتي هو فن تقديم الخدمة.

أعود مُحملة بالطيبات والملذات.

يُفاجئني بتعري نصفه الأعلى، فيظهر جسدُه المجعد، وشعر صدره الشائب الكثيف!

بيده أظلمَ الغرفة.. يُريحني الظلام.

يُمزق ملابسي.. يعشق الشراسة على ما يبدو.

يُخرج من خلف الأريكة سَوطًا طويلًا كلَيلَتِي، أسود كأحلامي.

يُوسِع كرامتي قبل جسدي بالضربات.

إذًا؛ لذلك كان متحفظًا؛ خاف أن أهرب لو علمت بمزاجه المنحرف! لا بد أنه لا يعلم أني أوافق على أي شيء.. وكل شيء!

يُنهكه التعب، يسقط على الأريكة الفخمة مُبتلًا في عرَقه، متلاحق الأنفاس، يُراقبني بعين نصف مفتوحة، أتكور حول نفسي وعيني تدمع.

أشار لي بإصبع مهتزة نحو الطعام، فأمسح الدم عن شفتي.

ألملم أشلاء ثوبي الفاضح بابتذال. أجهز الطعام على المائدة، يقوم مترنحًا من الإنهاك والنشوة.

ثم يُعاود الكرة مرارًا وتكرارًا؛ منذ شروق الشمس حتى المغيب:

اغتصاب بمقابل مادي...

طعام...

سوط...

دماء...

أخيرًا، زهدَ السيدُ في جسدي، فألقى نحوي بأجري. نظرت لبقايا الطعام بعين فقدتْ مفهوم الكرامة. أشار لي أن آخذه باشمئزاز، وأشاح نحو الباب.

غسلت وجهي في محاولة لمداراة الكدمات والجروح، جمعتُ بقايا الطعام في كيس أسود ونزلت من البناية أترنح.

أصِلُ إلى منطقتي "المكس"، وصمة العار في جبين الإسكندرية! رائحة اليود المنعشة تضمد جراح وجهي، رذاذ البحر يتناثر على ملابسي فيُنعشني وأنا أمتطي القارب الخشبي الأزرق علامة المكان المميزة؛ وسيلة التنقل بين منازلنا، حتى البحر هنا تختلف لمسته على وجهي عن ذلك البحر الخاص بالسادة.

ينقلني به "حمو"؛ صيادنا الأصغر قائلًا: "تفضَلي يا دكتورة".

نعم، فأهالي المنطقة يعلمون أني درست التمريض، لكنهم لا يعلمون أني تركته لأنه لا يُغني من جوع، من أجل شهرتي كمُمرضة يغفرون لي مواعيد عودتي الغريبة على وجه الخصوص في منطقة شعبية مثل هذه، إلى جانب أني لا أتوانى عن تقديم الخدمات الطبية البسيطة لمن يطلبها.

أتجه لبيتي البسيط الأقرب لكوخ، أعرج قليلًا من جراء ضربات العجوز الصاخبة والأرض غير الممهدة، فالمكان جنة العشوائية الحقيقية.

أفتح الباب الأخضر الخاص بمنزلي- وللدقة، فهو يشبه معظم المنازل المجاورة- برفق، أملًا في أن تكون نائمة.

لكنها تُقابلني بعاصفة الترحيب المعتادة، فرحة مرحة بسيطة.

ابنتي "فوزية" ذات الخمس سنوات، المصابة بداء التأخر العقلي، "متلازمة داون" كما أخبرني ذلك الطبيب الشهير في "لوران" بعد أن كلفني كشفه أسبوعًا من عملي المقيت، سبعة أيام من المهانة وبيع لحمي حتى أعرض حبة قلبي على طبيب يعلم ما يفعله.

والنتيجة: لا علاج.

لا مدرسة.

لا تعليم.

لا شيء!

يبقى الحالُ على ما هو عليه، كل ما أستطيعه هو تسهيل حياتها قَدر المستطاع.

زِد على ذلك أنها يتيمة الأب شهيد لقمة العيش الممزوجة بالقهر؛ الصياد الذي مات من جراء تعذيب كَفيلِه، ولا أستطيع أن أنطق أو أطالِب بحقي طمعًا في أن يُلقي لنا بنفحة تحمينا من غدر الزمان، كما نصحني مندوب السفارة قائلًا: "حكومتك لن تفعل شيئًا، فارضي بالقضاء واقبلي المال".

أفقت من مرارة خواطري على جوع وحيدتي وهي تشد كيس بقايا ذُل أمها الملوثة، فتركت لها ثمن لحمي لتقتات به، فليس لها ذنب فيما نحن فيه.

أما أنا، فتعاف نفسي طعامًا ممزوجًا بشهوة مشوَهة، فأتجه للحمَام لأغسل أوساخ المستأجِر عن جسدي.

ألقي أسمالي على الأرض. أفتح ماسورة المياه الصدئة، تنهال على جسدي المكدود ثلوج على شكل ماء... عليكِ اللعنة أيتها "النوَة"، وعليكَ اللعنة أيها الفقر، وعليك اللعنة أيها الكفيل، وعليك اللعنة أيها العجوز.

تنهمر دموعي وتختلط بمياه طهارتي، هل هو شعورٌ بالذنب أم المهانة أم القهر؟ لا أعلم.

أخرج فأجد ملاكي قد نامت. أضعها على سريرنا المتهالِك الوحيد مُحاذِرة ألا يُصدِر صريره الذي يُوقظ الأموات.

أفترش سجادة الصلاة.

أكبّر..

أقرأ ما أذكره..

أركع..

أرفع..

أسجد!

جبهتي تُلامس الأرض، تسبقها عَبراتي النادمة وابتهالاتي. أدعوه أن يغفر لي، وأكثِر من ذلك وأزيد.

أشعر بإرهاق شديد، لا بد أن أقاوم، فيجب أن أعود لعملي. استغفرتُ ولُمت نفسي حين تذكّرت حيلتي على الرزق في صلاتي.

كالطبل في صدري قلبي يدق، تنفُّسي يضمحل والدوار يُخالطني. ألم رهيب إلى ذراعي وكتفي الأيسر يتصاعد. لا أقوى على القيام من سجودي.

فأستمر..

على جبيني العرقُ يحتشد وبدمعاتي يمتزج، الرؤية تتشوّش، الدنيا تُظلِم.

الوعي ينزلق، الأزمة القلبية تقترب.. أعرفها من عملي السابق..

وحيدتي من بعدي.. أتذكّرا!

حُزني يتعظّم..

الموت يَدنُو!

4

فرصة أخيرة للنور!

سنة 2007

أسرِع يا عم درويش بالله عليك؛ إننا نفقده..

صرخ بها طبيب سيارة الإسعاف الحكومية المرافق في السائق العجوز؛ الذي رد بصوت زاعق ليعلو فوق العاصفة الدائرة بالخارج:

- أحاول يا دكتور، لكن المطر شديد، والطريق زلق إلى حد الخطر.

- لا يهمني، أسرع... الحالة مُصابة بهبوط حاد في الدورة الدموية نتيجة جرعة عالية من المخدر، والإمكانيات المتاحة في تلك السيارة الحكومية المتهالكة لا تساعدني، لا يهمني سوء حالة الطقس؛ لن تموت أولى حالاتي الميدانية في أول يوم لي!

يستجيب السائق ويضغط على دواسة الوقود حتى نهايتها فتتمايل السيارة بخطورة، لكنه ينجح في السيطرة عليها بالكاد، ويرد:

- الشبورة عالية، المسَّاحات لا تعمل، وأعمدة الإنارة مظلمة لا أرى الطريق بشكل واضح و...

غطت على صوته ضربة برق مهيبة أنارت الطريق لثوانٍ، فخُيل إليه وجود ظِل لشخص ما أمامه مباشرةً، فأدار عجلة القيادة إلى اليسار بحركة حادة للغاية صرخت معها مكابح السيارة، ولكنه لم ينجح في السيطرة عليها هذه المرة، ليدوِّي بعدها صوت نفير عالٍ لسيارة نصف نقل مُحملة بألواح زجاجية عملاقة تأتي في الاتجاه المقابل، لا ينجح سائقُها بدوره في السيطرة عليها بسبب المياه التي تغطي الأرض، لتصطدم بالإسعاف بمنتهى العنف، فتلف تلك الأخيرة حول محورها في نصف دائرة، وينهار بابُها الخلفي الضعيف. ينجح الطبيب بمعجزة في التشبُّث بالأجهزة المثبَّتة بالأرضية فلا يطير من مكانه، لكن النقالة لم تكن على نفس الدرجة من الحظ، فاندفعت مُحمَّلة بالمريض شِبه الميت ما بين الوعي والغيبوبة.

لينفصل هو الآخر عنها بدوره وكأنما تباطأ العالم، لتخترق جسدَه ألواح الزجاج، فيستفيق عقلُه دفعة واحدة، يشعر بكل شظية زجاج تُمزق جسده، ويرى كل نقطة دماء، يتعاظم إدراكه فيستقبل كل لسعة ألم، كل كشطة، حكّة، طعنة. وينحدر بسرعة نحو الموت الأكيد.

لكنّ العالمَ يتوقف بالكامل!

هذه المرة تعطَّل كل ما في المشهد متوقفًا في مجرى الزمن، كل حركة ماتت في منتصفها، كل خلايا جسده مُعلقة في الهواء، كل قطرات الدماء التي تتناثر منه مُتوقفة، كل شظايا الزجاج مُتطايرة لا تسقط وتُعاند الجاذبية، بل كل الموجودات تُعاند الجاذبية: الجسد، النقّالة، الزجاج، حتى السيارات المتصادمة والنيران نصف المشتعلة.. الصوت نفسه توقف في نصف هزيم الرعد التابع للبرق الأول.

مع نصف صوت تكسّر ونصف صدمة، كل شيء توقف... ثم صمت!

إلا شيئًا واحدًا.

للدقة.. شخص واحد، أو شِبه شخص، ظِل أو طيف غير واضح الملامح رغم الضوء الباقي من البرق المعلق في السماء وأضواء السيارات الثابتة، أسود بالكامل كأنه فراغ مُتحرك على هيئة رجل منتصب القامة، بدا للمُصاب المعلَق في الهواء مألوفًا بشكلٍ ما لم يُدركه في حينها.

يتحرك ذلك الطيف بهدوء غير مكترث للحطام ولا الكارثة المتعطلة في الأثير، يُزيح شظايا الزجاج بيده فتتحرك بتثاقُل كأنها في الفضاء بلا جاذبية، يخترق قطرات المطر المعلقة فيُصغّرها إلى قطيرات أصغر، يتجاوز كل شيء نحو هدفه؛ الرجل شِبه الجثة السابح في الفراغ.

يدرك الأخير بغريزةٍ ما الخطرَ المبهم المقترب منه، فيشعر بوجَل يستقر في أحشائه، يجاهد لتحريك أطرافه في الهواء المخملي بلا جدوى، كأنما شُلَ بالكامل، يشعر بكل ما حوله، ولكنه عاجز عن التفاعل معه.

يصل إليه الطيف، يمد يده عبر الزجاج لتتلامس اليدان، هنا ينقلب كل شيء رأسًا على عقب، تتحرك كل المتوقفات من حوله: الدماء، شظايا الزجاج، النقّالة،

البرق.. السيارات.. الضوء.

الكل؛ كل عناصر الكون عادت للعمل كأنها بُعثت للحياة من جديد إلا من اختلافين لا ثالث لهما: الأول هو المصاب الذي انفصل عن خريطة مسير باقي التفاصيل وتحرَّك ببطء مع توجيه خفيٍ من يد الطيف ليقف بدوره إلى جواره، والثاني هو أن كل ما عداهما عاد للحركة، نعم، لكن بالعكس!

كأنما عادت عقاربُ الساعة للوراء؛ فالبرقُ ارتد إلى السماء، الزجاج أخذ في التماسك من جديد، حتى الشظايا التي استقرت في جسد المصاب خرجت منه بلا ألم وطارت صوب رفيقاتها لتلتحم معها متحولة إلى ألواح زجاجية من جديد، السيارات المتصادمة اعتدلت، كل شيء....!

كل شيء يعود إلى أصله بمعدل سرعة متزايد بدرجة مُخيفة، فتلاشت الحواجز بين التفاصيل وبدأت تلتحم وتندمج في خيوط ملونة عسيرة التبيُّن من سرعتها، التي تزايدت بدورها حتى تحولت الألوان إلى لون موحَّد!

الأبيض فقط.

كل ما في المكان والزمان.

الفراغ والأثير.

تحول إلى مساحة شاسعة من الأبيض اللانهائي.

إلا المصاب ورفيقه الظِّل الذي ما زال يتشبَّث بيده.

أفاق المصابُ من ذهوله في متابعة ما يحدث، فتحسس أجزاء جسده فوجدها كلها سليمة، لا أثر لأي جروح، كلها التأمت كأنها لم تكن، جسدُه المهزول من جراء الإدمان عاد إلى مظهر صحيٍ لم يكن عليه من سنين، التفت إلى الظل بصوت مُتهدِّج مُتقطع، قال:

كيف فعلت، ماذا.. كيف؟

أين أنا؟

مَن أنت؟

أجابَهُ الظِّل - الذي بقي على سواده البهيم رغم البياض المحيط به من كل جانب - بصوت مألوف بشكل غريب:

- مرحبًا يا نور...

- كيف تعرف اسمي؟!

- أنا أعرف عنك الكثير، أكثر مما تتخيل.

كرَّر نور:

- مَن أنت؟

- لم يحِن أوانُ كشف ذلك بعد.

- متى يحين؟

أشار الظل بيده اليمنى إلى الفراغ، فتكونت صورة في اللاشيء، أقرب إلى بوابة أو نافذة تطل على مشهد متحرك ما.

مشهد مألوف هو الآخر لنور، مألوف بشدة، يكاد يقسم إنه سبق وقد عاشه من قبل بطريقة ما!

أجاب الظل على سؤال لم يُطرح:

- بالفعل لقد عشت هنا مسبقًا يا نور.

تقدم نور في حالة من الصدمة ليقترب من البوابة العجيبة، وانحنى للأمام متطلعًا للتفاصيل التي تثير في نفسه مشاعر حنين غريبة، كأن مسامَه نفسها تسترجع تلك الذكريات.

أكمل الظل من وراء ظهره:

- أما سؤالُك عمن أكون، فذلك سؤال تعرف إجابته بعد انتهاء رحلتك.

سأل نور دون أن يلتفت:

- أي رحلة؟!

- تلك...

ثم دفع الظل نور إلى الأمام داخل البوابة!

***

استمر نور في السقوط عبر الفجوة في فراغ أسود واسع، يرى البوابة السحرية تبعد عنه، يُطل منها عليه الظل الأسود وخلفيته البيضاء، زادت سُرعة سقوطه حتى قاربت روحُه على الانسحاب فشهق.

لكنها ارتدت إليه، ليجد نفسه في...

سنة 1990

شقة والدَيه القديمة، المكان الذي قضى فيه جلّ طفولته وقدرًا لا بأس به من شبابه، دار بعينيه في الأرجاء متعجبًا ليُطالع ذكرياته متجسدة يعيشها ويشمَها ويلمسها. التلفاز الملوّن ماركة لورد، اقترب منه يتحسس بَكَراته الدائرية الكبيرة وشاشته المحدبة التي ما زالت تُطلق الكهرباء الاستاتيكية حال ملامستها لأصابعه. رباه أصابعه، إنها أصابع طفل!

بل أصابعه هو أثناء فترة طفولته، بهلَع تحسَّس جسده بالكامل.. إنه يلمسه، ولكنه ليس بجسده الذي يعرفه، عرج بسرعة إلى غرفة السُفرة بصالة المنزل، سحب كرسيًا من كراسيها الثمانية الثقيلة بصعوبة، وقف فوقه في مواجهة مرآة "البوفيه"، فور أن شاهد نفسه انتفض كمَن مسَّه البرق، عاد يتحسس جسده مثل المجذوب غير مُصدَق. إنه شعره الكثيف، عيناه البريئتان العسليتان، أنفه الدقيق، إنه جسده.. لكن وهو في سن الخامسة، لكن أيضًا بوعي وتفكير شخص بالغ في أوائل العشرينات!

أي عبث هذا؟!

أفاق من صدمته على صوت صراخ وبكاء من غرفة نوم أبيه وأمه.

أمه!

كم افتقدَها!

ركض نحو الصوت بقدمَيه الصغيرتين ليجد أباه واقفًا، طويلًا مُخيفًا كما كان دومًا، يصرخ بسباب مُتتالٍ وهو يلهث بوجه مُحتقن، يمسك بسيجارة مُشتعلة بيده اليسرى وبتلابيب ملابس أمه المنزلية بيده اليمنى.

وقف نور مشدوهًا وقد عادت إليه أسوأ ذكريات حياته!

اليوم الأول الذي أدرك فيه أن أباه يحتقر أمه ويضربها بلا توقُّف. انتبه ويدُ أبيه اليمنى تترك ملابس أمه، ترتفع وتصفعها على وجهها بقوة غاشمة طرحتها أرضًا، لكنه لم يتوقف عند هذا الحد، بل استمر يلطم ويركل بلا توقُّف وهو يخور مثل الثور.

أخيرًا حرك نور جسده الصغير واندفع يَحُول بين الضارب والمضروب، كل همِّه أن يذُود عن أمه، فلم ينله إلا من الضرب جانبًا؛ فأصابته صفعة بظهر اليد جرحت شفته السفلى وقذفته بقوة متوسطة ليرتطم بالدولاب الخشبي العتيق.

توقف الأب للحظة ألقى فيها نظرةً على ولده المسجَّى أرضًا فلم يُثِر في نفسه أي شفقة، فاستأنف لطم الأم وركلها وزادها من الضرب بيتًا بالصراخ والسباب:

- تلك آخر تربيتكِ الفاسدة، ولدكِ يحاول ضربي، عاملِي "شَجِيع السِيما"، صحيح ابن أمَه!

تحامل نور على نفسه ونهض، لم يستطع تحمُّل المشهد أكثر من ثوانٍ معدودة فجرى من الغرفة.

جرى هربًا من الضرب والسباب الذي لاحق أذنَيه.

"ابن أمَه"!

لاذَ بغرفته، أغلق بابها لعلَّ الباب يمنع عنه الصوت المؤذي، لكن ما من فائدة.

"حقيرة".

تلفت نور حوله فتقع عيناه على دولابه الأزرق الجميل، فتحه ليختبئ به من شرٍّ يُدركه ولا يقدر على مواجهته.

"تربية فاشلة من أم فاشلة".

ما زال الصوت يدوّي في جنبات عقله مَسمومًا يُدمي قلبه، أدرك أن عينيه تبكيان بلا توقف، يبدو أن روح هذا الجسد هي لنور الصغير؛ فنور الكبير تبلّدت روحه من كثرة ما رأى.

تجسّد أمامه طيف أسود بالكامل، مُحدد الملامح، كأنما بشكل ما هو أشد سوادًا من الظلام داخل الدولاب، تكلم بصوت خفيض مُبهم مألوف، لكن نور لا يسمعه بسبب صراخ الأب الذي يهز جنبات كيانه، فيضع كفّيه على أذنيه ويضغط بقوة مؤلمة. ظل يضغط ويضغط حتى سادَ الصمتُ ولم يعُد يَصِلُه لا صوتُ أبيه ولا الظِّل ولا أي صوت آخر.

لكن ذلك لم يمنح روحه التي شُرخت الالتئام. فاستمر في البكاء بلا انقطاع حتى فقدَ الوعي.

سنة 1992

أفاق نور البالغ في جسد نور الطفل، ولكنه أكبر قليلًا، ليجد نفسه مطرودًا في الطُرقة المظلمة أمام باب شقته، يبكي مُمسكًا بشهادة مدرسية تُوضّح درجاته المتدنية مُحاطة بلون أحمر ثقيل، مع توصية شديدة اللهجة مُوقّعة من الناظر بالمتابعة مع الطفل والانتباه إليه وإلا سيكون مُضطرًا لتسليم ملفه وإخبار وليّ الأمر بضرورة البحث عن مدرسة أخرى!

المزيد من أصوات شِجار مُتبادَل بين الأم والأب يأتي من وراء الباب المغلَق، اتهامات من طرف ومحاولات فاشلة للدفاع من الثاني.

لا تتوقف، لكن تتغير وتيرتها، يزداد الأب قسوة وانفعالًا ويخفت صوت الأم بالتدريج.

- أنتِ أم مهملة وزوجة فاشلة و ...

غطّى على الأصوات تكة مزلاج الشقة المقابِلة، فُتح البابُ وخرج منه ولد أكبر من نور بما لا يقل عن خمس سنوات، ملامحه غريبة، أشقر الشعر مُلون العينين، بداخلهما شرارات شقاوة شيطانية بطريقةٍ ما، أغلق البابَ خلفه ثم جلس إلى جوار نور على السلَم البارد، ربت على كتفه برفق وسأله:

- ماذا حدث؟

لم يقوَ الأخير على الرد، فمد يده بالشهادة المدرسية المزخرفة بالأحمر، أمسكها الفتى بين أصابعه الثعبانية ليقرأ ما بين سطورها بصعوبة، ثم أعادها إلى نور وربث على كتفه مجددًا، فكأنما كانت تلك إشارته. فانفجر في المزيد من البكاء المكبوت بلا توقُّف مع نشيج مستمر يعلو تارة وينخفض طورًا على خلفية صوت الشجار الذي لا يهدأ. زاد تعلُّق الفتى بكتف نور، وأخذ يُمسدها برفق، فهدأ الصغير قليلًا، هنا مدَّ الفتى الطويل يده إليه قائلًا:

- أمير كرامة، مدرسة "...".

ردَّ نور بصوت مَبهور مَبحوح من أثر البكاء وهو يُبادله المصافحة:

- نور، نفس المدرسة للمصادفة.. لكني أصغر منك.

ابتسم نور بإرهاق، لكن الابتسامة تم وأدها قبل أن تكتمل مع الصفعة المدوية القادمة من داخل شقتهم، أعقبها دويّ سقوط جسم ثقيل على الأرض متبوعًا بعويل أمه الحاد. هنا ارتدَّ إلى نور حزنُه مُضاعَفًا فأكمل بكاءه وهو يدفن وجهه بين كفيه.

لف أمير ذراعيه حول نور واحتضنه بكامل قوته، لكنه لم يهدأ، واستمر في البكاء إلى حدّ ارتجاج جسده وتلطيخ كتف صديقه الجديد بالدموع، رغم ذلك لم يتركه، بل ظل يُحرك كفيه الكبيرتين بالنسبة إلى نور، يُمسّد كتفيه وأعلى ظهره بحنوّ غير بريء!

إلا أن نور استكان إلى لمسة حنان من أي ذَكَر، بالأخص مع قسوة أبيه المبالَغ فيها، فهدأت ارتجاجاتُ جسده بالتدريج وتشبَّث به هو الآخر.

هنا ظهر الطيفُ الأسود المألوف إياه يقبع في الطرف المقابِل للطُّرقة، ويشير له بإصبعه بعلامة النفي!

لكن نور مرَّغ رأسه أكثر في حضن الفتى وأغمض عينيه.

سنة 1995

فتح نور عينيه ليجد نفسه مسحوبًا بيد أمير إلى داخل حمَّام المدرسة بعد ميعاد الانصراف، الأصوات هادئة، فلا أطفال ولا مُعلمين، فقط هما، تلفَّت أمير حوله في حذرٍ خشية أن يباغتهما شخصٌ ما تأخر عن الرحيل مثلهما لأي سبب. تسمَّر نور للحظات شاعِرًا بالخطر، فتلفَّت له الآخر مُتسائلًا:

- لماذا توقفت؟

- ما الذي نفعله هنا؟

قلب أمير عينيه لأعلى في نفاد صبر، وقال:

- ألم أخبرك من قبل؟ أنا وأنت نحتاج إلى احتضان بعضنا البعض، نحتاج إلى التقارب في حين يُجبرنا الجميع على الفراق، لا يفهمون أن كلًا منا يُعوِّض الآخر عن الكثير، ولن يفهموا، وقد رأيتَ بنفسك ما حدث سابقًا أكثر من مرة عندما شاهدَنا أحدُ المدرسين، فصرخ وتركنا في حوش المدرسة في ذروة شمس الظهيرة بالساعات كعقاب، وذلك اليوم بالأسبوع الماضي عندما لمحَنا أبوك؛ حيث آثارُه ما زالت مرسومةً بالكدمات المنتشرة على وجهك وأكبرها على عينِك.

لما وجدَهُ مُتردِّدًا كررَ وهو يقترب منه دون أن يترك يده، ثم احتضن كتفه وهو ينظر إلى عينيه:

- لن يفهمونا، إنهم في منتهى القسوة، لن يفهموا احتياجاتنا.. أنا وأنت فقط يُكمل بعضُنا بعضًا، والآن دعنا نُسرع قبل مرور بوَّاب المدرسة ليتأكد من رحيل الجميع.

قالها ودفعه برفق إلى داخل الحمَام الغارق في رائحة مُنظفات الأرضية ليَعبُرا المبولةَ البيضاء إلى عُمق الحمَّام. فتح أمير آخر باب جانبي يُفضي إلى مساحة ضيقة نسبيًا بها قاعدة حمَّام فقط، أكملَ دفعه برفق، ثم أغلق الباب بمنتهى البُطء وبحذر كي لا يُصدر أي همسة. زيادة في التأمين أغلق المزلاج الصدِئ، والتفت لرفيقه بابتسامة منتصرة فاتحًا ذراعيه على اتساعهما قائلًا:

- الآن صِرنا وحدنا، لن يرانا أحد. نستطيع احتضا...

قاطعه نور بأن ارتمى بين ذراعيه وهو يبكي بلا توقُّف حتى بلَّلت الدموعُ

قميصَه المدرسي الأبيض. ربت أمير على ظهره ولم يقاطعه. تركه يحتضنه ويشم رائحة عرقه المتأرجح بين الطفولة والبلوغ ليعوض به رائحة أبيه. ولما هدأ النشيج بعضَ الشيء، أمسك بذقنه ورفع وجهه لتلتقي عيناهما مُجددًا، ثم سأله وهو يمسح دموعه بباطن كفه:

- أعتقد أنني أستطيع إعطاءك حضنًا أفضل من هذا، حضنًا لن تنساه أبدًا!

قفز التساؤل من عينَي نور المغرورقتين، فأكمل أمير بنعومة:

- لو كان الجلدُ مكشوفًا لأصبح الحضنُ أكثرَ قوة!

تحولت عينا الصغير إلى قلق مَشوب بالفزع، فاستطرد أمير بسرعة مُطَمئِنًا:

- ألا تثق بي؟ لن أؤذيك أبدًا؛ فأنا أحبك، أريد فقط راحتك. هيا اخلع قميصَك وما تحته.

احتضنه أمير بقوة غير مؤلمة، وفركَ نور نفسه بالكامل في الجسد العاري، تشمَّمه، تنفَّسه، تمنَّى لو ذابَ في صدره.

هنا باعده أمير قليلًا للوراء وسأل: "أعجبكَ؟".

هزَّ الأخيرُ رأسه بالإيجاب.

أكمل أمير بصوت مُتهدج ونفَس مبحوح من الإثارة:

- ما رأيكَ أن نجعل الحضن أقوى عشر مرات على الأقل؟

لم يعترض هذه المرة، بل وافق مُنبهرًا بإيماءة صامتة من رأسه.

- تعالَ.. سأجعلك تستمتع بحضن لن يعطيه لك رجل غيري. استدِر. واجِه الحائط.

هنا تجسَّد في ركن الحمَّام الضيق الظل الأسود يُشير بعصبية بعلامة النفي ويحاول التحدُّث إليه.

سنة 2000

نهار مدرسي عادي، لكن الثنائي الآن هاربان من المدرسة في بيت أمير، لا يرتديان إلا ملابسهما الداخلية السفلى، وجسداهما غارقان في العرَق البارد، اعتدل

أمير وقد ظهرت عليه علامات الفتوة: جسد مفتول، طول فارع، شاربه يغطي أعلى شفتيه. اعتدل ليزيح نور من حضنه قليلًا، ويمد يده إلى أسفل الأريكة التي يضطجعان عليها ليخرج علبة سجائر أجنبية حمراء. سحب منها واحدة وأشعلها بقداحة من ذات العلبة، ثم سحب نفسًا عميقًا دلّ على احترافه التدخين من فترة ليست بالقصيرة.

انتفض نور عندما وصلت الرائحة إلى أنفه، فأعادت إليه ذكرى رائحة أبيه التي يشمئز منها، تلك التي ارتبطت معه دومًا بالألم، سأل متعجبًا:

- هل تُدخن؟

- وما الضرر في ذلك؟ أبوك يُدخن من قبل ميلادك، وأبي يُدخن هو الآخر؛ تعلّمها في سفره الدائم.

نفث دفقة كبيرة من الدخان في وجه نور الذي سعلّ قليلًا، وأكمل وهو يُشير بعلبة السجائر:

- هذا النوع هو المفضّل عنده، يُحضره معه عندما يأتي في إجازته السنوية بكميات كبيرة تكفيه فترة الشهر الذي يقضيه معنا، هذه العلبة بالتحديد سرقتها من مخزونه ولم يشعر بذلك؛ فلديه الكثير، حتى أمي تُدخن هي الأخرى، لكنها تدخنُ نوعًا مختلفًا من السجائر الرفيعة بالنعناع، لم أحب مذاقها؛ تعلّمَتها من "شِلة" ذلك النادي الفخم الذي تذهبُ إليه يوميًا حتى المساء. لماذا يُوقَف الأمر عندي؟ أنا كبير مثلهما ومن حقي التدخين.

نفث المزيد من السحب ثم مدّ يده إلى رفيقه قائلًا:

- تجرّب؟

تردّد نور في قبول السيجارة، فعاجلَه بكلمة السر:

- ألا تثق بي؟

تناول منه السيجارة المنتهية نصفها وسحب منها نفسًا عميقًا، هيّج حساسية صدره، فأخذ يسعل وسالَ الدمع من عينه واحمر خدّاه، على ما يبدو أن المشهد أثار صاحبه فسحب منه السيجارة وأطفأها في منفضة السجائر، ثم دفعه على

الأريكة ونام فوقه يُقبله بأنفاس مُزبِدة.

أغمض نور عينيه في استسلام لم يسمح له حتى بملاحظة الطيف الواقف في طرف الحجرة البعيد عاقدًا ذراعيه على صدره في اعتراض!

سنة 2001

قفزة جديدة في الزمان والمكان، حمّام شقة نور المغلق عليه؛ جالسًا محنيّ الرأس على الأرض المثلجة عاري الجذع، قميصه مُلقى إلى جواره، أسفل عينيه أسود من قلة النوم وجسده ناحل قليلًا، يحاول سدّ أذنيه عن مشاحنات أبيه مع أمه المستمرة بالخارج، بين شفتيه سيجارة مشتعلة سرقها من علبة أبيه بعد أن كاد يُجنّ من فرط الرغبة في التدخين.

لكن للأسف أمير مسافر إلى والده ليقضي معه الإجازة، لَكَم يفتقده؛ ظل يقارن بينه وبين قسوة أبيه معه، ضربه الدائم بالأيدي والأرجل، بل حتى بحزام البنطال. ضرب مُستمر على أتفه الأسباب.

نسيت مصباح الحمام مُضاء ليلًا؛ نصيبك صفعة على وجهك!

اشتريت نوعًا من السجائر غير الذي يُفضله؛ حسنًا، تلك ركلة غير مُحددة الهدف إلى أي جزء من الجسد!

أضعت غرضًا من حقيبتك المدرسية وترغب في البديل؛ لا مشاكل، هذه قيمتها لسعتان إلى ثلاثٍ باستخدام شمّاعة الملابس البلاستيكية!

اعترضت، أو ردَدت عليه أثناء شتمه المستمر لك ولأمك؛ تلك تُعادل مجموعة مُشكّلة من الركلات واللكمات، ولو تأوّهت يخلع حزامه ويظل يضرب حتى ينقطع نفَسُه، هنا ليس لك غير الانسحاب بكرامتك المبعثرة إلى أي مكان تختفي فيه من وجهه حتى تهدأ نوبة غضبه.

"أنا أكرهه".

اعترف بها نور لنفسه بدون تفكير، يكرهه من كل قلبه، يمقته ولا يطيق حتى البقاء معه في مكان واحد، يحاول إبقاء وقتهم المشترك في أقل حيز ممكن.

سرح خياله من جديد في رفيقه البعيد. شعر بالضيق والمزيد من النفور من أبيه. لماذا يَبقى هو ويرحل أمير؟

انتابته نوبة غضب مُفاجئة شبيهة بنوبات أبيه، فقام يضرب بقبضته الحائط مرات ومرات.

ظل يضرب حتى انتشر الألم في مفاصل يده، لكن ذلك الألم تبعه الشعور براحة مفاجئة، هنا فهم أن تألمه البسيط مُريح!

ربط بينه وبين السكون الذي بدأ يسري في قلبه، تلفت حوله باحثًا عن مصدر للألم أخف ولا يُسَبب له الكسور لو تمادى في اللَّطم.

لمح موسَى أبيه العتيق، تحرك ووقف أمام مرآة الحمَّام يتأمل الموسَى ذا الطراز القديم الذي يُصر أبوه على استعماله نابذًا الأشكال المتجددة منه ذات النصال المتعددة الاثنين أو الثلاثة، فذلك الموسَى ماركة لورد لونه أبيض بذراع بلاستيكي، يغير له السن كل فترة عندما يثلم من كثرة الاستعمال، نصل واحد حاد بشفرة مفردة.

أداره بين أصابعه وما زال صوت سباب أبيه المقزع يتنامى إلى مسامعه، فلم يتردد. أمسكه بقوة بين أصابعه، لمس الحد المسنون فلسعه. يبدو أنه جديد. مد ذراعه إلى الأمام أسفل المرفق بقليل حتى يصبح مُغطى بالملابس طويلة الكُم، وبحركة حادة سريعة مرَّر النصل على سطح جلد ذراعه، ظهر جرح صغير انبثقت الدماءُ منه فورًا!

دماء حمراء قانية، وفاتنة.. ومُريحة.

نعم.. مريحة جدًا!

فور نزول ذلك النَّزْر القليل من ذراعه تصاعدت في نفْسِه راحة عظيمة مخلوطة بنشوة تشبه تلك التي تحدث له عندما يحتضنه أمير من الخلف!

بدَل الذراع وأمسك الموسَى باليد الأخرى، وعلى نفس الارتفاع كرر نفس الضربة، وتصاعدت نفس النشوة داخله حتى ارتعش جسدُه وأغمض عينيه بقوة.

أغمضها فلم يرَ الطيف الأسود الجالس في مكانه السابق على الأرض مُنكس

الرأس!

سنة 2003

"أنا ذاهبة إلى النادي، هل تحتاج إلى شيء من الخارج؟".

ترددت الجملة بصوت والدة أمير الناعم، فانتفض الأخير من فوق صاحبه وجلس معتدلًا على السرير في غرفته المظلمة المغلّقة، يشير لنور بالصمت بإصبعه ويتنحنح ليستعيد جلاء صوته، ثم ينفي احتياجه إلى أي شيء. يسود السكون للحظات حتى يسمعا صوت مفاتيح سيارتها يتبعه صدى باب الشقة الرئيسي يُغلّق وخطواتها تدق الأرض مُبتعِدة.

هنا تنفس كلاهما الصعداء، واعتدل نور يحتضن ظهر صاحبه الجالس مُطأطِئ الرأس، ثم سأله بعد فترة سكوت:

- ألن تُكمل؟!

هز الأخير رأسه نافيًا وهو يزفر في حنق:

- أخرجتني تلك الحمقاء من الحالة المزاجية العالية التي كنتُ فيها!

تركه نور والتف ليجلس إلى جواره وهو يريح رأسه على كتفه ويسأل من جديد:

- لماذا تكره والدَيك إلى ذلك الحد؟ لم أرَهُما يضربانك يومًا!

قام أمير بصلفٍ تجاهَ المرآة الكبيرة التي تتوسط دولاب ملابسه، يتأمل جسده العاري المشدود ويقوم ببعض الاستعراضات لعضلاته البارزة في محاولة للعودة إلى مزاج جيد، لكن يبدو أن ذلك لا يفيد، فيستدير مُجيبًا بنقمة:

- ليتهما يفعلان!

كلاهما يعيش في وادٍ منفصل، ولا أحدَ يسأل عني، أبي كما تعلم مُسافِر طوال العام ولا يحضر إلا في إجازة قصيرة يقضيها كلها نائمًا وحده أو فوق تلك الشمطاء التي تتفنَن في إرضائه طوال فترة وجوده هنا، فيأكل أفضلَ الطعام ولا يفعل أي شيء، فقط يرتاح ويُمارس معها كل أنواع الجنس.. لا تنظر إليَ مثلَ الأبله هكذا؛ فهي تتعمد أن تتغنج وتُعلي صوتها أثناء الممارسة فيصل إلى أذني رغم

بابَينا المغلقَين لترضي فحولته؛ فهو مصدر الأموال الطائلة التي تنفقها بلا حساب طوال فترة غيابه. تنفق على صُحبة النادي والمجوهرات وقصّات الشعر الجديدة، والصبغات وتغيير سيارتها السنوي و...

أشار بكفه المفتوحة ليقاطع نور قبل أن يعترض، وأكمل:

- وتنفق عليَّ، لا أنكر ذلك، تنفق عليَّ بكثافة وبلا حساب، لكني لا أحتاج إلى مالهما، بل أحتاج إليهما، إلى اهتمامهما.. إلى وجودهما في حياتي. أحتاج إلى أن يَرياني موجودًا!

قالها وانهار جالسًا على السرير يدفن وجهه بين كفيه وينشج. قام إليه نور واحتضن رأسه وربت عليه بحُنوّ بالغ، وقد بدأت عيناه في الترقرُق بالدمع بدوره.

قام أمير من جلسته يهز رأسه وينفض عنه لحظة الضعف التي أجبرته على البوح بكل ذلك إلى رفيقه، وهزت صورته القوية التي يُحاول الحفاظ عليها.

تصنَّع الحماس، ولكن عينيه اللتين ما زالتا محمرَّتين من البكاء فضحتاه، وقال:

- دعنا نستعِد المزاج الجيد.

مد نور يده بتلقائية إلى علبة السجائر ليُشعل له ولرفيقه منها، لكن الأخير أمسك بيده في منتصف الطريق، وقال:

- دعك من ألعوبة الأطفال تلك، فأنا لديَّ لك مفاجأة.

قالها وقام صوب الدولاب، فتحه وجلس القرفصاء يُقلِّب في حاجياته ليُخرج حقيبة سفره الصغيرة وهو يحكي:

- جربتها أول مرة أثناء سفرتي الأخيرة إلى روما في الإجازة الصيفية الماضية، تعرفت على مجموعة من الشباب هناك سهرنا معًا، وأعطاني إياها أحدهم، ذهبت بي إلى دنيا الخيال، وأعطتني قوة رهيبة، تعرفت هنا على بعض الزملاء في النادي وتجاذبنا أطراف الحديث لأجدهم يُجرِّبونها، ومن هنا وصلتُ إلى تاجر ثقة أحضِر منه ما أشاء.

ارتسمت أمَارات التعجب على ملامح نور، وإن خالطها التساؤل عن ماهية ذلك

الشيء الذي دفع أمير إلى كل ذلك الحماس، لكن كل مشاعره انطفأت وحلَ محلها الخوف والقلق عندما أخرج رفيقُه كيسًا أصغر من كف اليد مُمتلئًا بمسحوق أبيض.

تغيرت لهجة أمير إلى صوت ناعم رقراق ثعبانيِ مُغرٍ وهو يقول:

- لا تقلق، ستسافر إلى عوالمَ لم تعلم عنها أي شيء، ستدبُ الحياة في عروقك.

لكن نور لم يستجب، بل انكمش بعض الشيء للخلف وغطى جسده العاري بالملاءة الرقيقة البيضاء، غير أن الآخَر لم يُمهله فأكمل:

- قلت لك لا تقلق، ستقوِي جسدك وستتحمل كل أنواعِ الألم، حتى ضربات أبيك معها لن تعني لك أي شيء!

هنا توقف نور عن العودة بجسده للوراء وتصلَب، ثم سرح في معاركه اليومية مع أبيه، معاركه الخاسرة دومًا، أحس أمير ببوادر اقتناع فأجهز عليه بالقاضية وهو يُمد يده بالكيس على طول ذراعه مبتسمًا:

- ألا تثق بي؟

هنا انهارتْ مقاومتُه وتقبل منه الكيس، لكن الأخير رفع ذراعه وعاد إلى الدولاب متراقصًا ليَحضر ماصَة عصير وموسَى ثَلم أثارت رؤيته في نفس نور شعورًا مهيبًا، فتحسس ساعده ورفعه إلى عينه ليشاهد آثار التشريط المتتالية بطوله. قال له أمير دون أن ينظر وهو ينهمك في تحضير المسحوق على هيئة خطوط رفيعة متوازية:

- حتى ذراعك لن تحتاج إلى جرحها لتشعُر بالراحة.

قدم إليه هديته وأكمل:

- مع هذه لن تحتاج إلى شيء، لن تحتاج إلى العالم، ستستغني عن الجميع...

وضع طرف الماصة في أنف نور وأغلق الفتحة الأخرى، وأشار له أن يتنفس بعمق، واستطرد:

- ستستغني عن الجميع، إلا أنا طبعًا!

مع نهاية جُملته وصل المسحوق إلى أعماق رأس نور فارتعش من النشوة لثوانٍ

معدودة، بعدها عاد برأسه إلى الوراء يضحك بهستيريا بلا سبب. غامت عيناه وأخذت جفونه تُغلق دون إرادة منه.

أغلقت على الطيف القابع في طرف الحجرة صامتًا.

سنة 2007

أفاق نور على ألم مُدوٍ من صفعة رنت على خده الأيمن فأسقطته أرضًا من عنفها. برؤية مشوشة من الدموع الحبيسة في مُقلتَيه رفع وجهه إلى أبيه المنتصب أمامه في أعنف وأقوى صوره، لم تهدّه السنون ولم يأكل الزمن من عنفوانه، فقط تركَ بصمتَه بقليلٍ من التجاعيد حولَ الفم وشعر خالطَ سَوادَه بياضُه.

أخذ والدُه يُرغي ويزبد وينثر اللعاب من فمه وهو يصرخ:

- أيها الابن العاق الجاحد، بعد كل ما فعلته من أجلك، بعد أن ربيتك حتى أصبحت بغلًا تأكل العلف، بعد أن صرفت عليك دم قلبي، بعد أن اعتزلت النساء إكرامًا لذكرى أمَك، بعد كل هذا تسرقني أنا يا ابن الحرام؟!

استمر في تعنيف نور الساقط وهو يركله بلا توقف ويسبّه بكل الشتائم التي سمعها ولم يسمعها في حياته، وأكمل بين اللهاث والركلات:

- تحمَلت.. تحمَلت فشلك وانطواءك، تحمَلت مستواك التعليمي المنحدر وسقوطك المتكرر، وتحمَلت... حتى عندما حصلت في الثانوية على مجموع لا يُدخلك أي كلية محترمة، دفعت لك في جامعة خاصة لتصبح مهندسًا مرموقًا.

المصاريف الدراسية؛ هات يا أبي. حاضر.

الدروس الخصوصية؛ هات يا أبي. حاضر.

مَلازِم ومَراجِع؛ هات يا أبي. حاضر.

هات، هات، هات.

توقف للحظة التقط فيها أنفاسه وخلع حزام بنطاله بعينين تطقان بالشَّرر، ثم رفع ذراعه لأقصى مدى ليهوي بها باتجاه الجسد المكوَم أمامه يحاول تفادي لسعات الحزام. ثم أكمل صارخًا:

- وبعد كل ذلك تسرقني أنا يا ابن الكلب؟! أنا يا ابن العاهر....

قاطعَته كفُ نور التي اندفعت من أسفل لتمسك يده مصحوبًا بصوته ليرد صريخه بصريخ:

- كفى، إلا أمي.. لن أسمح لك أن تسبها وهي ميتة مثلما كنت تفعل وهي حية.

قالها وشد باستماتة من قبضة يده الممسكة بساعد أبيه، الذي حاول سحب يده بقوة، لكن نور ركّز كل ما يملك من إرادة الحياة في كفه الممسكة بالحزام، وأكمل وهو ينظر بمنتهى المقت لداخل عينيه:

- لن أسمح لك بعد أن قتلتها!

ارتعشت شفةُ الأب السفلى وبانت عليه علاماتُ الصدمة، ثم تراخت يدُه إلى جواره، بل تراخى جسدُه بالكامل، وسقط جالسًا على أقرب مقعد وإلى جواره الحزام ترن مقدمته المعدنية على البلاط وهو يتمتم بكلمات غير مفهومة.

هنا استأسدَ نور كأنما أحس أن كلمته قد أصابته في مقتل، فقال وهو يدور في الغرفة مثل أسد حبيس:

- نعم قتلتها، أنا رأيتك.. كنت مُختبئًا منك يوم ظهور نتيجة الثانوية العامة في دولاب غرفة نومك! هه.. شاب بالغ في الثانوية يختبئ في دولاب، تخيل!

ولما لم تجدني لتُفرغ غضبك، جرجرتَها وألقيتَها في الغرفة مثل الجوال وأغلقتَ الباب، ثم ألقيتَ اللوم كله عليها كعادتك. تشاجرتما، سببتها، وضربتها فلم تنطق أو ترد عليك؛ علَّك تهدأ من تلقاء نفسك، لكنك تماديتَ في كل أنواع الضرب والركل والصفع و....

حاول الأب أن يقاطعه، لكن نور أشار بسبّابته في غضب وأكمل دامعًا كأنما يَخشى لو صمت ألا يستطيع الكلام مُجددًا:

- لا تحاول. قلت لك إني رأيتك.. تركتُ فرجة بسيطة من باب الدولاب حتى لا أختنق من نقص الهواء ورائحة النفثلين. رأيتك وأنت تصفعها الصفعة الأخيرة، أقوى صفعة رأيتك تضربها في حياتك. ما زال دويُها يرن في أذني، كانت من القوة أن ألقتها لترتطم رقبتُها بحافة الكومود بمنتهى العنف وتنكسر.

نعم، لقد سمعتُ صوت فقرات رقبة أمي وهي تتحطم بيد أبي!

زفرَ للتخفيف من غضبه المكبوت بلا نتيجة، وصاح في وجه أبيه المذهول:

- عليك الصلاة ليلَ نهار لأني لم أُبلغ عنك الشرطة، وسكتُّ، أتعرف لماذا سكتُّ؟

لأني كالعادة كنت خائفًا!

كنتُ خائفًا منك، لكن لا خوف بعد اليوم، ستسمعني وسأقول كل ما في نفسي.

نعم أنا أسرقك، وليس من اليوم فقط، فأنا لم أذهب إلى الكلية، ولا أحضر دروسًا خصوصية، ولم أشترِ يومًا مَرجِعًا، كل هذا المال أصرفهُ على المخدرات!

ارتسمت ملامحُ جنون لحظيَ في عينَي نور وهو يُكمِل:

- ولدكَ الوحيد الذي ربَيته بالكرباج، ربَيته على القسوة والخوف، مُدمِن يا والدي...

مُدمِن هيروين.

الصمت خيَم على المكان بعد الجملة الأخيرة. الأب جالس في ذهول لا يقوى حتى على الرد، عيناه مُتسعتان وفمه مفتوح، صدره يعلو ويهبط بحشرجة خفيفة.

استدار نور ناحية باب الشقة وفتحه ليخرج، لكنه استدارَ ليُلقِي نظرة أخيرة على أبيه وقال:

- لن تراني بعد اليوم.. ورغم أني مُدمِن وفاشِل وراسِب، لكن لا يُشرفني أن تكون أبي!

قالها وأغلق الباب وراءه بهدوء عجيب، فلم يلمح الظل الذي تجسَد جالسًا بجوار الأب!

سنة 2007 لاحقًا

استيقظ نور في حضن أمير عاريًا في مكان لا يعرفه، استغرق لحظةً ليتذكَر أنه فندق حقير نجمة واحدة في منطقة وسط البلد، استأجر به الشابان غرفة بعدما طردتهما أم أمير عندما ضبطت ابنها نائمًا فوق صاحبه، وهما مُنهمكان في ممارسة

الجنس، سبّتهما وقذفتهما بكل ما طالته يداها من أثاث الفيلّا الفخمة الجديدة التي كانوا قد اشتروها في التجمع الخامس ليُقيموا فيها جميعًا بأموال أبي أمير الذي مات مُغتربًا!

لم يكفِ نور ورفيقه ما تبقّى معهما من مال بعد شراء مخزون لا بأس به من الهيروين إلا هذا المكان القذر، لكنّ نور لم يهتم ما دام يحتفظ بحضن الرجل الوحيد الذي عطفَ عليه!

اعتدل من نومته ليجد أمير يُجهز جرعة مخدَر صباحية كبيرة تعاطياها معًا وانتشيا، ثم استلقِيا إلى جوار بعضهما البعض. رن هاتف أمير المحمول فرفعه إلى عينيه بتكاسل ليرى مَن المتصل. رد على المكالمة بتثاقل، ثم انتفض وقد طار كل تأثير للبودرة من رأسه، ثم قال لرفيقه بصوت مرتبك وهو يرتدي ملابسه في عجالة:

- أنا خارج لأحضر شيئًا نأكله، فنحن لم نتناول طعامًا منذ الأمس!

جرى بعدها مسرعًا إلى الخارج يصفق الباب وراءه بقوة، فلم يسمع نداء نور المتعجّب، مرت فترة من الزمن ولم يعُد الراحل، والقلق ينهش رفيقه من الداخل، حتى عاد الغائب متثاقلَ الخطوات يتجنب نظرات نور الذي سأل:

- أقلقتَني، أين كنتَ كل هذا؟! وأين الطعام؟

- لم أذهب لإحضار الطعام، تلك كانت أمي. أول مرة تتصل بي بعد رحيلنا، كانت في شقتنا القديمة تحضِر بعض الحاجيَات فوجدَت تجمهُرًا أسفل المبنى وسيارة إسعاف.

صمت قليلًا واستمر دون أن ينظر إلى نور:

- كانت متأكدة أنك معي، وتريدني أن أخبرك، أن والدك أصابته ذبحة صدرية ولم يجد مَن يُنقذه فـ.. فمات.

أنهى كلامه واقترب من صديقه يحتضن كتفيه ليواسيه. لكنه ارتدَ متفاجئًا عن نور الذي رفع رأسه وكل ملامحه تضحك. كل خلجة، كل شعرة، حتى عيناه كانتا تضحكان بصوت عالٍ مُجلجل!

استمر في وصلة الضحك فترةً ليست بالقصيرة، ثم خاطب صديقه بهدوء:

- أريد جرعة قوية من المسحوق!

- لكن الـ...

- لقد أخذتُ جرعة اليوم، أعرف ... لكنني مُنتشٍ وأريد الاحتفال. اجعلها مُضاعَفة؛ فاليوم تحرَّرتُ من الذل!

***

سنة 2007

قرابة فجر اليوم التالي، يُجري أمير مكالمة تليفونية من هاتفه المحمول وهو واقف في منطقة مهجورة من شوارع مصر القديمة:

- السلام عليكم، الإسعاف؟

.....

- أريد الإبلاغ عن شاب ميت!

......

- أعتقد أنها جرعة مُخدَر زائدة، العنوان "...".

......

- مَن أنا؟

......

- مجرد فاعل خير!

قالها وأغلق الخط، ثم ألقى نظرة أخيرة على نور الملقى في غيبوبة أقرب للموت.. في مقلب القمامة!

قبل أن يستدير ويرحل!

سنة 2007، الوقت الحاضر.

أفاق وعي نور على جسده في الفراغ الأبيض الشاسع مرة أخرى. لا يشاركه فيه إلا الظُل الأسود المألوف بشكل غريب، الذي تكلَم بعد لحظة صمت مُريب بصوت مألوف هو الآخر لأذنيه:

- الآن انتهت الرحلة وعرفتَ ما فعلت. أمامك طريق جديد، لكن بلا اختيارات هذه المرة.

مع نهاية قوله تكوَنت بوابة أخرى في الفراغ تطل على ظلمة سرمدية بلا نهاية، بدأت تسحب جسدَ نور إليها بقوة متسارعة، الذي التفت يسأل الظُل وهو يحاول تثبيت قدميه الواهنتَين في الأرض:

- أين أنا؟!

- كنتَ في البرزخ.

- أين سأذهب؟

- صدقًا.. لا أعلم!

- هل سأذهب إلى الجنة؟ أنا مظلوم!

- لو أنك استمعت لي طوال عمرك ربما.. أقول ربما كانت فرصتك أفضل بالتأكيد!

صرخ نور وجسدُه يقارب على الاختفاء التام في البوابة المظلمة:

- مَن أنت؟

أجابه الظُل بهدوء وقد بدأ السواد يتلاشى من ملامحه تدريجيًا وتتشكَل تفاصيلُ شخص بالغ مألوف بشدة لنور:

- أنا الذي رفضتني طوال عمرك، صمَمت أذنيك عني، حتى تضاءلت وقارب صوتي على التلاشي من أعماقك.

اتسعت عينا نور وقد أدرك أخيرًا مَن هو الظُل الذي أكملَ بصوت أقرب للهمس:

- أنا فِطرتُكَ الطيبة التي رفضتَ سماعها، جانبُكَ الصالح، ضميرُكَ.. سَمِّه كما شِئتَ.

وكان آخرُ ما سمعه نور قبل أن يختفي بالكامل في البوابة بصوته هو نفسه من صورته المكتملة أمامه التي كانت سابقًا الظِّل:

- أنا نورُكَ يا نور، أنا هو أنتَ!

5

مُستثنى من الموت

يناير البارد ينخر برياحه المؤلمة في عظامي المسنَة وأنا أجلس في الشارع، أقوم بواجب العزاء في آخِر رجال شلة الجامعة، أتكوَم حول نفسي على طرف السرادق بجوار أحفاد المتوفَّى، فأبناؤه من المسنَين يختلسون لحظات من الدفء بالداخل بعيدًا عن زمهرير الشتاء، يدوِّي صوت عبد الباسط عبد الصمد صاحب البحة المميزة في الأرجاء عبر مكبرات الصوت في المكان شبه الخاوي.

الطقس شديد البرودة، وكل معارف المرحوم إما قد سبقوه، وإما لا يقدرون على تلك الجلسة بسبب الهرم. تنساب دموعي على وجنتي فلا تنزل بشكل مستقيم بسبب الأخاديد التي حفرها الزمن في وجهي. أسأل دموعي وهي تهطل؛ فأنا لا أدري أهي حُزن على آخر الأصدقاء، أم على حالي أنا؟

كلهم سبقوني، كلهم ذهبوا وتركوني وحدي في ذلك العالم الموحِش.

الأصدقاء.

الأهل.

المعارف.

كلهم بلا استثناء رحلوا، لم يتبقَّ سواي أنا وهو حتى الأمس، واليوم أنا وحدي.

لطالما كانت "مِناقرِتنا" الطفولية المعتادة- التي لا تتناسب مع سِننا- تدور حول أننا تزاملنا في الجامعة، ولكني أكبر منه بكثير، فكانت كلمته المفضلة:

"يا عجوز".

حتى وهو على فراش الموت أصفر الوجه عكر العينين، تتدلى ذراعه اليمنى المتغضنة إلى جواره، يتعلق بها أنبوب المحاليل المعلقة على عمود طويل، يفتح ويُغلق فمه بلا هدف، ويتمتم بكلمات غير مفهومة لا طائل منها ولا من المحاليل، كما أخبرني ولده الأكبر بالخارج قبل أن أدخل عليه. بقوة فجائية أمسك رُسغِي المتغضن وقال هامسًا في ضعف:

- احكِ يا عجوز.

ابتسمتُ رغمًا عني؛ فقد ألفتني الشلّة كحكّائها الأوحد، فقرة رئيسية في جلساتنا على مقهى "معروف" الحقير في وسط البلد بعد طلب المشاريب المعتادة ومعسّل القص – لمَن يحتمله- فالاطمئنان على الأحوال، ثم تأتي أهم فقرة وهي أن أحكي.

ولما لم يكن هناك في حياتي من جديد– وذلك هو الوضع في آخر عشرين عامًا – تصبح الحكاية عن ومِن ذكرياتنا المشتركة التي يعلمونها أكثر مني، ولكنهم يحبون مهارتي في الكلام، وانفعالي أثناء تفاصيل الحكاية، فأعود إلى أيام الجامعة؛ أكثر فتراتنا الغابرة ثراءً في الأحداث، وأنتقي إحدى طرائفنا التي كانت لا تنتهي، وأبدأ في الحكي.

في البداية أحكي بصوت مرتعش قليلًا بحكم السن وتلمّس ذكريات الماضي الضبابية. أغمض عينيّ وأندمج وأنطلق، فأصول وأجول في الوصف، الأماكن والأشخاص، الملابس والأجواء، حتى الطقس، يُحبون تجسيدي للذكريات القديمة على طريقتي. حتى إنهم لم يعودوا يُعلّقون على تحركي في الأحداث بتصرف كما كانوا في البداية، فقد اعتدتُ إضافة القليل من البهار والتوابل النابعة من خيالي في التفاصيل، التفاصيل نفسها أحرّكها بحُرية مُطلَقة. أخفي أشخاصًا وأضيف آخرين، أغيّر السنين وأضيف الالتواءات والمفاجآت على القصة، بل وتماديتُ أحيانًا في غيّي بأن غيرت النهايات لأضفي وِجهَة نظري في عدالة القدَر.

فكم من مرة زوّجت ذلك من تلك التي كان يشتهيها، أكملتُ القصة من قريحتي التي لا تنضب ورسمتُ حياتهم وحوّلتها، أما ذلك فقد ظلمه مديره، سرق مجهوده ونسبه لنفسه، أتدخل بفضيحة مدوية يتعرض لها الظالم تكسر شوكته ويتكالب عليه منافقوه السابقون، بل وأجعل مرؤوسه السابق يُصبح رئيسَه الجديد!

تلك خانت زوجَها وهربت مع عشيقها، فيطردها الأخير بعد أن يسرقها، فتعود مُتوسّلة لزوجها الذي يطردها بدوره لتمارس البِغاء حتى يقبض عليها وتُفضَح في كل مكان.

أظل هكذا؛ أُميت وأحيي بلا شفقة، كأنهم شخصيات خيالية لا بشر أحياء بعضهم يجلس أمامي بالفعل يستمع منبهرًا بعينين تلمعان بشغفٍ قديم لقصة حياته كما لم

يرها من قبل.

لطالما عشقت أصدقاء نزق الشباب، ورقَ قلبي لحالهم- الذي لا يختلف كثيرًا عن حالي- فكنت أحوّل مسار القصص دومًا إلى صالح أحدهم ممن جارَ عليه الزمن.

فذلك الحطام البشري تركَته زوجته التي استغلت ثقته ونقلت كل أملاكهم المتواضعة باسمها، ثم ألقته إلى الشارع بلا مأوى، لا يستره من العراء إلا آخر أبنائه الباقين على أرض الوطن، بعدما هاجرَ بقيتُهم ولحقتهم أمهم لتبدأ حياتها من جديد في بلاد الثلج والكرواسون. هنا أتدخل أنا وأعيد إلى وجهه بعضًا من البسمة ولعينيه اللمعة، فِأسهب في وصف حال زوجته في بلاد الفرنجة وانشغال باقي الأبناء عنها، واستنزافهم لكل المال الذي تحصّلت عليه بلا وجه حق، ولما أرى منه استجابة وترقبًا للخط الدرامي الجديد أندمج في الحكي وأتأثر.

فأنفعل ويتهدَج صوتي وتزأر أحبالي الصوتية في انفعال، واصفًا كيف غدروا بها مثلما فعلت فألقوها في دار للمسنين مدعومة من الدولة، فزادت غُمزًا فوق غُمر، وتكالبت عليها الأمراض بسبب سوء المعاملة، وأدركت مع الوقت أنه ذنب ذلك المسكين، فشارفت على الجنون بسبب هشاشتها النفسية، ويحاول المسئول عن الدار الاتصال بذويها ليشرح لهم حالتها من السهاد والقذارة الشخصية ومناجاتها ليلًا لزوجها المغدور صارخة:

- ذلك ذنبكَ يا حبيبي، اغفر لي.

هنا تتحول بسمته لقهقهة مُجلجلة تثلج صدري وكأنها تقول:

"أنت مُهم، ولوجودك هدف"!

فأبتسمُ بدوري.. ولكن...

ولكن تنقضي الجلسة وينفضّ الخلان الواحد تلو الآخر حتى أبقى وحدي، فأرحل إلى بيتي الخاوي، لا تُطاوِعني نفسي حتى على تناول لُقيمات محدودة. أذهب إلى شرفة منزلي القديم مثلي، فأعدَ كوبًا من الشاي مصحوبًا بعود من النعناع الأخضر المقطوف لتوّه من النباتات المختلفة التي تؤنس وحدتي.

تشكيلة من النرجس والريحان مع القليل من النعناع، ووردة وحيدة.. مثلي.

ينتهي الكوبُ ولا يساهم في المزيد من السهر فأتجه لسريري مُتثاقلًا، أقدِّم خطوة وأؤخِّر اثنتَين، فأنا أعلم ما سأراه في منامي مثل كل ليلة!

أفرد جسدي كيفما اتفق.

أحاول التقلب يَمنة ويَسرة.

فلا أستقر إلا على ظهري.

أحاول تبديل وضع ذراعيَّ.

فلا أرتاح إلا مربعًا إياهما مثل أجدادي القدماء.

للأسف، نفس وضعية النوم التي أهرب منها نفسها، أغوص في فضاء سرمديّ لا أولَ له ولا آخر، حتى أستعيد وعيي ولا أستيقظ من نومي!

أستعيد وعيي على نفسي تُشاهِدُ نفسي المسجاة على السرير في ذلك الوضع الجنائزي الأقرب للتحنيط، مع تكرار الأمر على مدار السنوات وصلتُ إلى قناعة مفادها أني لا أحلم، وأن النائم هو جسدي بلا روح، وأن المتفرج هي روحي بلا جسد.

أتطلَّع لملامحي المتغضنة بهدوء، أتمعّن في ملامح حفَرَها الدهر بروية، أشعر بدموعي تُبلِّل وجهي، ألتفت لمدخل الحجرة، أحاول الفرار مثل كل يوم، بالطبع أحاول الفرار من هذه الدنيا، فلم يعد لي فيها من أحد، يُمزقني الحنين لكل مَن أحببتهم.. لكنهم ليسوا هنا.

بل هناك، على الضفة الأخرى، غير أني لا أُجيد السباحة ولا حارس النهر يَقبلُ بي في قاربه.

كل ضحكاتي الآن هي ذكريات مع موتى.. أجترها فلا أتذوّق إلا المرار في فمي، لمَن أبقى؟

لمَن أعيش؟

أليس موتي براحة؟

بالطبع؛ على الأقل أقضي باقي الأبدية بجوار الأحبّة الراحلين.. لكن، فلكن، ولكن،

ثم لكن...

لكنّ الموت يأبى الاقتراب مني، ولا يقبل مُناجاتي لحجز موعد قريب.

مع تكرار حلمي آمنت من داخلي أني لو خرجت من تلك الغرفة فسأتحرر، ولن أعود لذلك الجسد البالي، وزاد إيماني بتلك القناعة البابُ الموصد والنوافذ المدعمة بالحديد، وإلا فلماذا تُسجن روحي في غرفة بلا مَخرج في حلم؟

أقترب من الباب وأنا مُوقِن أن مزلاجه لن يستجيب مثل كل يوم، لكني لن أمَلَّ من المحاولة، أدير المقبض.. فيلتف مع قبضة يدي ليُفتح!

أرتدُّ مصعوقًا للخلف، لـ.. لـ.. لقد توارب البابُ عن فرجة أقل من سنتيمتر واحد، لكنه فُتح.

هل سأخرج أخيرًا؟

ألتفت إلى جسدي النائم بلا روح مُودِعًا برؤية تشوشها الدموع، أعود للباب.

أضع يدي على المقبض من جديد، أهمّ بتوسيع فُرجة الفَرَج.. لكني أتردَد وأتسمَر!

لماذا؟

لماذا تُراودك التساؤلات الآن؟

ألم تتمنَّ ذلك اليوم بدل الليلة ألفًا؟

مَن بقي لك في تلك الحياة لتُفكّر حتى مجرد التفكير في المكوث لتلقاه؟

أدرك في لحظة صِدق أنها الدنيا، تلك الحسناء اللعوب التي تُغريك بكل مفاتنها حتى آخر قطرة من الكأس، فتتمسَك بتأثير خمرها للنهاية، عندما يطفئ النادل الأنوار ويهزك بقليل من القسوة لتنصرف. عندها فقط تُدرك أن الميعاد فات، ومرَّ الليلُ بلا فائدة.

أهز رأسي لأنفض سِحر الدنيا منها؛ فالخلاص قريب ولا مجال للتراجع.

أفتح الباب بكل العزم حتى نهايته، وأهمّ بالعبور لكني أتسمَر من جديد عندما دوّى السؤال في ذهني:

"لماذا الآن؟".

بقيتُ طويلًا أتمنى تلك اللحظة، أبحث عنها وأتقصى أثرها، بل توسّلت إليها أن تأتي، لكنها لم تفعل وظلّت تراوغ، فلماذا استسلمتْ أخيرًا؟

لا يهم.

أسمع صوتًا رخيمًا مُحايدًا يُدوّي في أذني فأفهم.

أخيرًا.

أفهم أن بقائي كان مُهمًا حتى يرحل الجميع، فحكاياتي ساعدتهم على الصمود والعبور بسلام، ولما رحلَ الأخيرُ وجب عليّ اللحاق.

فلم أغد المستثنى من الموت.

أعبر الباب المفتوح فيغمرني النور الساطع وأسمع.

رفعتُ قدمي اليُمنى وألقيتُ بجسدي للأمام، في الفراغ، في النور الأبيض اللانهائي.

أراهم يرفعون أيديهم.

كل مَن سبقني.

يمدّون يُمناهم ليستقبلوني، وعلى وجوههم البيضاء بسمةُ أشدّ بياضًا.

تنتقل تلك البسمةُ لوجهي تقائيًا.

ويغمرني النورُ الأبيض المريح بسكينة انتظرتُها عُمرًا بأكمله.

6

الحياة في فنجان اسبريسو

"هاك ما طلبت، إن احتجت لمبيّض يوجد على الطاولة".

قالها النادل الشاب بإنجليزية متواضعة مخلوطة بالكثير من الإيطالية والأكثر من ضيق الخلق وهو يلقي فنجان الاسبريسو أمامي بطريقة تفتقر لأدنى قواعد خدمة العميل، لكني تغاضيت عن ذلك لأتأمل الفنجان الذي تتصاعد منه الأبخرة ذات الرائحة النفاذة الشهية، يغطي سطحه الرغوة التي أعشقها أكثر من القهوة نفسها لأنه في دين القهوة الرغوة والثمالة هم عصارة تركيز القهوة ومرارتها وبالتالي مكامن لذاتها!

تجاهلته فتجاهلني وانصرف معدلًا كمامة الوجه على أنفه ليستدير باتجاه المنصة، وهو يهم بتحضير طلب آخر لأحد سكان المقهى التقليدي الفاخر الذي يتوارد عليه البشر من كل صنف ولون بحثًا عن قهوتهم الجيدة.

كثيرًا ما أقصد المقاهي على اختلاف أنواعها في أماكن ترحالي المتعددة؛ لتناول القهوة والتخطيط لمشاريعي القادمة بهدوء بعيدًا عن صخب المنزل وضجيج الأطفال، صحيح أني تعلمت تحضير قهوتي بنفس الكفاءة لكن ذلك الصمت عملة نادرة، عامل غير متاح إلا عند شرائه هنا مقابل فنجان قهوة بسعر زهيد في هذا المكان البعيد غير المطروق وهي صفقة رابحة.

الحقيقة أن ذلك ليس هو السبب الحقيقي، فأنا أتنقل بين المقاهي، أصنع قهوتي، أطلب قهوة في كل اجتماع عمل، كل زيارة عائلية، حتى إني أسعى من بلدة لبلدة في بعض الأحيان بمجرد سماعي عن مكان تصنع فيه قهوة جيدة؛ فقط بحثًا عن فنجان القهوة المثالي!

تأملاتي في الفنجان أثارت في نفسي الشجون، فأغلقت الحاسب المحمول وأمسكت صديقي المقرب الجديد المؤقت حتى ينتهي، ورشفت من الحافة الفخارية رشفة بسيطة على طرف اللسان مستمتعًا بلذعة الرغوة المريرة معدومة السكر، حبست الرشفة على لساني ومررتها ببطء إلى باقي أجزاء فمي ثم انتابتني

لحظة إدراك وتعجب معجونة بسؤال وجودي؛ كيف وصلت لهذا الحال من الإدمان!

الآن أحتسي القهوة بدون سكر، متوسطة التحميص، في فنجان لا في كوب كرتوني، ولا بد أن تكون سوداء لا بياض فيها، أنا ... كيف؟

يشدني تيار السؤال فأسبح في بحور الذكريات إلى بداية تعرفي على ذلك السائل الساحر الأسود، منذ ما يزيد عن الثلاثين عامًا أثناء دراسة الثانوية العامة، لعنة كل منزل ورعب الآباء قبل الأبناء، فقدان التركيز مع ساعات المذاكرة اللامتناهية المحاولات اللا مجدية لمواكبة ساعات الدراسة الطويلة تليها الدروس الخصوصية تتخللها تمارين السباحة، وهنا تظهر محفزة الأداء ومثيرة الهمم؛ أمي. لتعرفني على معشوقة ظلت معي حتى الآن وربما إلى يوم أموت!

من أجل تعويض أملها في الدراسة الجامعية وبالتحديد الهندسة، الحلم الذي طاردته طويلًا حتى هرب منها بالزواج صغيرة فقامت بإسقاطه في ولدها الوحيد، من أجله عرضت عليّ كوبًا من القهوة يدعم ذهني، رفضت بحزم لأني كنت لا أستسيغها ولا أتقبل طعمها؛ وذكرتها بالتجربة الوحيدة التي كانت من أيام الطفولة، عندما حضر لبيتنا قريب من بعيد وجالَس أبي لساعات طوال، توالت معها فناجين القهوة التركية المحوجة بالحبهان فائحة الرائحة، ذهابًا وإيابًا من المطبخ للصالة والعكس، وكانت جلسة الرجل مسلية لأقصى حد فهو يمتلك موهبة الحكي الفطرية، فتجلس مشدوهًا تتابع أداءه المسرحي صعودًا وهبوطًا بانفعالات قلما نجدها في نجوم الشاشة حاليًا. يحكي أخبار الأقارب ويتفنن في وصف المشاهد، من سرق أرض من؟

فيرسم بيده حدودًا فاصلة وهمية بين الأراضي ويتقمص الشخوص ويبدل بينهم، يغير انفعالات وجهه بلا مشاكل بل ونبرة صوته فكأنما أشاهد عشرات الأرواح وقد تقمصت جسدًا واحدًا.

الوقت صيف ولا مدرسة بالغد، وأنا مشدوه للقصص التي لا تنتهي ولعلها كانت أول مرة أكتشف فيها حبي للحكي، لكني أنهار وجفني يرفض مخاصمة عيني فينغلق بشكل تلقائي، لا سبيل أمامي سوى التشبه بالكبار، عندما عرضت أمي دورًا جديدًا من قهوتها المخصوصة. رفعت يدي في تقليد مدرسي شهير مطالبًا بنصيب من تلك الغنيمة التي يشتهيها الجميع، ارتسمت الضحكات على العيون والشفاه

وقال أبي -رحمه الله- أني لن أحتملها، لكني أصررت بعناد طفولي وفورة رجولة مهانة، فلست أقل منهم منزلة بين الرجال.

عرض أبي مترفقًا بحالي مشاركته رشفة من قهوته، التي أتت بالفعل ساخنة تتصاعد رائحتها تملأ الأنوف والحلوق، أمسك أبي الفنجان بعدما تركه هنية لتهدأ القهوة كما قال، تشممها مستعذبًا متمهلًا ثم ارتشف (وش) القهوة السميك فهو لا يفرط فيه مهما كان السبب، سألته عن السبب فتبادل هو وأمي نظرة حنونًا وقال:

إنه السبب في زواجي بأمك، فقد وقعت في هوي أمك وقهوتها من قبل حتى أول لمسة على لساني.

ثم على مهل أنهى نصف الفنجان وقدمه لي، فتقدمت بدوري متهيبًا أؤخر القدم وأقدم الأخرى، نظرات الجميع منصبة نحوي تجلدني بسياط الدهشة وعدم التصديق. معها قررت حسم أمري وإثبات أني لها، فجرعت باقي الفنجان دفعة واحدة دون تذوق فاندفع السائل الأسود الحارق، يسلق لساني وجوفي بالحرارة، ويدمر براعم التذوق، ويقلب معدتي رأسًا على عقب، فلم أدرِ بنفسي إلا راكضًا للحمام لأفرغ روحي نفسها، تلاحقني ضحكات الكبار الأشبه بالرصاصات الساخرة من الطفل غير الناضج.

ذكرت أمي بتلك الواقعة المأساوية، فابتسمت بإشفاق وأعادت عرض الحل السحري، أول طريق الإدمان، قهوة سكر زيادة مخففة باللبن، أو للدقة والرأفة بحالي كهاوٍ؛ مصنوعة بالكامل باللبن ولا ماء فيها، وافقت على مضض فالحاجة ملحة والتركيز في انهيار والامتحانات على الأبواب، والأهم أمي تعتمد على نجاحي.

ثم أتى الكوب الضخم، وضعت حافة الكوب على طرف شفتي في توجس، أراقب أمي تراقبني بطرف عيني في أمل – كعادتها كلما صنعت لي شيئًا تحاول قراءة ملامحي لتستشف رد فعلي في صنعة يديها قبل أن تسمعه، خشية المجاملة – رشفة صغيرة متمهلة تنبهت معها براعم التذوق في لساني ليعود إلى وضعه الطبيعي بعدما كان منكمشًا في سقف حلقي، لم تكن سيئة؛ اللبن كسر حدة المرارة، مع عبور السائل الدافئ خط لساني المنيع، استبقيته قليلًا في فمي قبل أن أبتلع وبدأ حذري يتضاءل؛ فصعدت نكهة القهوة عبر فمي إلى أنفي واستقرت في

تلافيف مخي، لا إراديًا رفعت الكوب الشفاف أمام نظري وهززت رأسي مستحسنًا.

هنا انفرجت أسارير أمي وتنفست الصعداء؛ فقد نجحت قهوتها في الاختبار، تلك مسألة كرامة؛ لم يخلق بعد من يعترض على قهوة من يدها وكان لا بد من الانتصار في حرب استرداد الكرامة تلك، حتى وإن لجأت للحيلة والاستعانة بجيوش من اللبن والسكر الزائد.

مع الوقت أصبح كوب قهوة باللبن بمواصفاتي الخاصة عادتي اليومية، بعد أسابيع قبل الموعد الرسمي المعهود قمت من مذاكرتي مسرعًا إلى أمي في المطبخ، وجدتها تشرع في تجهيز (الكنكة) الكبيرة وإخراج اللبن من الثلاجة، ألقيت باقتراحي لها أن (تخف) يدها قليلًا في السكر؛ أريد استعذاب القهوة بشكل أفضل.

هنا ارتسمت على وجهها ابتسامة مشفقة، وهزت رأسها بما فهمت بعد ذلك أنه يعني (أهلاً بك في طريق اللا رجعة)، وبالفعل بدأت أتلمس طريقي في أنواع البن المختلفة، سادة، محوج، حبهان، وسط، غامق، لكن الشرط الصارم ظل كما هو؛ اللبن.

مع اقتراب تحديد المصير المتمثل في امتحانات الثانوية تزايدت الجرعات بالتدريج؛ فواحدة لم تعد تكفي، تزامن ذلك مع تقليل السكر واللبن في مقابل علاقة عكسية متنافرة مع البن الذي استقر لفترة لا بأس بها مع المحوج وسط، حتى أصبحت قهوتي في ليالي الامتحانات المسهدة يكاد لونها يقترب من الأسود المشبوب ببعض البياض المتناقص باطراد مع تناقص ساعات نومي واسوداد أسفل عيني.

ورغم ليترات اللبن المغموس في كيلوات لا حصر لها من البن والسكر؛ تأتي النتيجة بما لا تشتهي لا سفن ولا بحار، في يوم لن أنساه ما حييت؛ فقد كانت الأوتار مشدودة منتظرة الخبر اليقين ووالدي أراد تلطيف الأجواء بعض الشيء، فجهز لنا مفاجأة، ثلاث تذاكر لفيلم محمد هنيدي الجديد وقتها (بلية ودماغه العالية).

ارتدينا ملابسنا وقبيل التحرك بدقائق معدودة تسقط عليا الصاعقة، محطمة

آمال الهندسة إلى فتات، تجمدت الملامح وانهمرت الدموع من المقلات؛ فالصدمة التي كانت من نصيب أمي مزلزلة، الآمال العظيمة رحلت بلا رجعة، الطموحات لن تكون، لن يذهب ابنها للجامعة يحمل المسطرة الشهيرة كما أملت، ولن يعود منها يرتدي زي الطيار كما أمل أباه في قرارة نفسه.

كانت أقسى لحظات حياتي وأنا أراقبها من بعيد تقف في المطبخ أمام الموقد والكنكة على النار، تصل أصوات نهنهتها إلى موضعي وأبي يتجاوزني ويحتضنها من الخلف، مقبلًا شعرها بغمغمات غير مفهومة لم أترجم منها إلا كلمة (آسف)...

فقد كان هو الذي يتأسف بالنيابة عني!

وكان يعلم أن بزواجه منها شارك في ابتعاد حلمها بالهندسة، وبفشلي أنا كان الحلم قد مات، فالحقيقة أنه كان يتأسف بالنيابة عن كلينا.

ولأول مرة في تاريخها تفور قهوة أمي، فلا ينتبه لها كلاهما ويتركانها حتى ينطفئ الموقد من السائل البركاني ومعه تنطفئ الآمال في صدر أمي، يومها أقسمت ألا أخذلها وألا تفور قهوتها ثانية.

وصدقت في قسمي...

فقد كانت تلك هي آخر قهوة صنعتها في حياتها!

لم نذهب للسينما، نامت حزينة، ولم تستيقظ أبدًا!

بعد تلك الخيبة الثقيلة التي تبعتها صدمة أثقل، أتى تنسيقي في محافظة الإسماعيلية؛ مما يضعنا أمام خيارين لا ثالث لهما إما أن أقيم هناك في أي فندق متواضع، أو أن أركب حافلة (شرق الدلتا) يوميًا ذهابًا وإيابًا حتى أنتظم في محاضراتي، بما أني مولود في أسرة متماسكة وأنا بطبعي أميل للعزلة وعدم مخالطة الآخرين، بالإضافة لصدمة وفاة أمي التي زلزلت كيان المنزل وقلبته رأسًا على عقب؛ كان الاختيار الأوقع هو الحج اليومي إلى الإسماعيلية ومنها، مع الإقامة في نزل الشباب عند الضرورة أيام الامتحانات.

غير أني لم أقدر على مطاوعة أبي والانتظام في النصف الدراسي الأول من السنة، غلبني حزني، ومرارة نظرات أبي، لم يقلها ولا مرة واحدة لا بالتلميح ولا

بالتصريح، لكن نظراته كانت تقتلني، كانت تقول لي، أنت قتلتها!

لم أتعافَ وأبدأ في التغلب على حزني إلا بعد الإقامة فترة لا بأس بها في كنف جدي والد أمي، الذي احتضنني وأزاح همي بأن ساعدني على القرب من الخالق، معه انتظمت في الصلاة، تعلمت صوم الإثنين والخميس من كل أسبوع، تعلمت صدقة التبسم، والعمل في الدنيا، فهمت منه أن النجاح في الدنيا لا يعتمد على الدراسة فقط ولا الموهبة فقط، بل خليط منهما، بحث معي في تفاصيل حياتي حتى عثرنا معًا على موهبتي الربانية؛ الخيال!

أمتلك خيالًا خِصبًا جامحًا، أصنع عوالم مختلفة داخل ذهني بلا مشاكل، أجيد تركيب الحكايات لصنع قصص متماسكة، وكأنما وجد جدي في ذلك مراده ومهربي ونجدتي، انطلقنا سويًا لتعلم كل ما يخص الكتابة، مؤلفات عظماء الأدب الكلاسيكي العربي والمترجم، كتب تعليم فن الكتابة، النقاش حول رمزيات محفوظ وإنسانيات ديكنز، تعلمنا السرد وتفاصيله و....

تقابلنا في الكثير ولم نفترق إلا في نقطة واحدة؛ قهوته!

لم أحب قهوته، حاول بكل السبل أن يضبط مقادير الخلطة لتطابق قهوة أمي رحمها الله، رغم أنه من علمها صنعة القهوة إلا أنها ظلت فريدة من يدها.

وكان آخر ما أقنعني به، هو ضرورة إنهاء دراستي الجامعية قبل متابعة شغف الكتابة، فقررت العودة لبيت أبي والعودة للدراسة مع بدء نصف العام الدراسي الثاني.

ولما كانت المحاضرات تبدأ الساعة السابعة. فاستوجب ذلك مني ركوب أول ميعاد للحافلة في تمام الخامسة والربع مع زقزقة العصافير، للبعض لا يمثل ذلك أي مشكلة لكني في الحقيقة كنت طوال حياتي وطواطًا آدميًا؛ أعشق النوم النهاري والاستيقاظ المتأخر، ولا أتقن عملًا إلا في جوف الليل – كل ما كتبت تم بعد الساعة الرابعة فجرًا على أنغام أم كلثوم الكلاسيكية – فكنت في تلك الأيام الدراسية أذهب إلى السرير بعد الثانية صباحًا ولكن ينطلق المنبه في الرابعة ليوقظني، لا أرى أمامي إلا ضلالات، ولا أجرؤ على إيقاظ أبي من أجل كوب القهوة باللبن – الأقل في الطعم من خاصة أمي هو الآخر- وإلا فهو الويل والثبور وعظائم

الأمور.

وعليه ظهرت القهوة (التيك أواي) لأول مرة في حياتي، أمام موقف الحافلات في ميدان (التجنيد) بمصر الجديدة على الناحية الأخرى أسفل الكوبري، منصة صغيرة لا تنام لصنع القهوة والمشروبات الساخنة أدرك صاحبها (عم نصر) مبكرًا عناء الطلبة فأصبح صديقهم.

مزدحمًا دومًا بمن هم على شاكلتي؛ من يأملون في الاستيقاظ والتنبه من أجل الرحلة التي تتجاوز الساعة بقليل، ويوم حافل من المحاضرات والملطفات والمشاحنات ثم العودة المنهكة مثل جندي مهزوم في معركة العلمين.

انضممت للتلاحم طمعًا في الهدف، كل منا يحاول العبور فوق رأس أخيه ويجاهر بطلبه، ولأن حجمي كان دومًا أضخم من أقراني فوجدت لنفسي متنفسًا بسهولة، اتسعت الصفوف لي وأنا أمد يدي بالنقود صائحًا:

قهوة باللبن ...

بعدها ساد الصمت، وكأنما توقفت العصافير عن الزقزقة والشباب عن المزاحمة؛ ليتطلعوا لذلك العملاق الذي يتعاطى قهوته الممزوجة باللبن مثل الأطفال، تركزت الأنظار نحوي فبدأت في تصبب العرق من منابت شعري وكل مسامي، تراقصت عيناي في محجرهم وأدركت حجم المأساة التي فعلتها بنفسي، هل فقدت هيبتي من أول يوم، هل أصبحت (مسخة) الجامعة قبل حتى أن أصلها؟

ألا يكفي دخولي متأخرًا بعد أن تكونت الأحزاب والفرق و(الشلل)؟

فجأة هبط الوحي كما يقولون وتفتق الحل إلى ذهني المزدحم بالقصص، فزدت صوتي خشونة قائلًا:

بسرعة يا (عم نصر وحياتك)، حتى تلحق (الآنسة) الحافلة.

ثم أشرت بذراعي للخلف نحو مجموعة من البنات المجتمعات عن بعد بطريقة مبهمة، هنا عاد كلٌ إلى شاغله بعد ما أدركوا أني أحضر طلبًا لفتاتي الرقيقة التي تتناول قهوتها مخففة باللبن ولا أرغب لها مزاحمة الرعاع أمثالهم.

فظفرت ببغيتي، دون فقدان كرامتي، عدت محملًا بالكوب الكرتوني الأبيض

تتصاعد منه الأبخرة لذيذة الرائحة، أتسلل خلف مبنى المحطة قرب الحدائق شبه المظلمة من الأشجار الكثيفة لأحتسي قهوتي في صمت وأنا أفكر في حالي، هل أظل هكذا كل يوم؟

لا بد من حل. وإلا عاجلاً أم آجلاً سيفتضح أمري، ويدرك شباب الدفعة أني أصلًا خجول إلى حد الخفر، ولم أنجح بعد في التعرف على أي فتاة ما بالك بالـ...

لكن مع تذوقي للقهوة اكتشفت أن حل كل مشاكلي قد تم بضربة واحدة أو لنقل برشفة واحدة، فقد بصقتها من فوري وحسمت أمري للأبد سأشرب قهوتي بلا لبن من الآن فصاعدًا!

فعلى ما يبدو أن (عم نصر) قد أشفق على الفتاة التي تخيل أنها تخصني؛ وصنع لها كوبًا من اللبن الممزوج بأقل القليل من القهوة، لأن من الواضح أن حظي العاثر اختار الفتاة الوحيدة التي أشير إليها فيتصورها (العم ناصر) بنظرته الثاقبة تعاني بصورة ما من لين العظام. فأغدق عليها من منابع الكالسيوم ويا ليته من مصدر طبيعي!

فقد صنعها بأسوأ نوع من الألبان التي ترفض الامتزاج بالقهوة كأنهما الزيت والماء؛ وهو اللبن البودرة السيئ الطعم وحيدًا فما بالك بالأفاعيل المحرمة التي يصنعها مع البن، أفقت من خواطري السارحة مع (عم ناصر) الملعون وقهوته الجهنمية؛ على الحافلة البرتقالية تتهادى أمامي مغادرة المحطة في طريقها إلى الإسماعيلية بعد ما ركبها كل التلاميذ تاركة إياي في حضرة الفراغ.

فلم يتبق سواي واللبن المطعم بالقهوة و...

(عم نصر).

تجاوزت سنين الجامعة بمعجزة ما، لم يكن ذهني حاضرًا بالأرقام والمعادلات وحسابات الكفيل والدائن والمدين، بل كنت في ملكوت آخر، أشرد في قاعة المحاضرات وأنا أتخيل خلفية ذلك المحاضر الشاب ومدى الكفاح الدامي الذي خاضه ليحصل على مكانته، ذلك لو كنت أحبه!

أما لو كان العكس، فأتخيله شريرًا مريدًا يحطم زملاءه، ويبلغ عن مرؤوسيه

ليصل إلى منصبه.

أشاهد ولدًا وبنتًا يختلسان لمسة أصابع وهما يتخيلان أن الأعين غفلت عنهما، فأتخيل كيف تعرفا وكيف تحابا وكيف سيفترقان!

واظبت على العودة في عطلة نهاية الأسبوع إلى جدي فأقص عليه كل ما جاد به ذهني، فيستمع ويعدل وينقح الحبكات الأدبية، لتصير قصصًا متماسكة تصلح نواة لعمل أكبر.

حتى فاجأني يومًا بهدية.

مسجل كاسيت بسيط يعمل بالشرائط، وطلب مني حكاية كل ما يتفتق له ذهني في وقته أمام الجهاز دون الانتظار أو الاعتماد على الذاكرة، على أن أقوم بتفريغها بشكل دوري باستخدام مجموعة من الأوراق والأقلام أهداني إياها بالمثل.

طرت فرحًا بتلك الهدية وزادتني قربًا منه، وساعدتني على تجاوز دراسة لا أحبها بمقدار كبير من التحمل، بل والاستمتاع!

شيء وحيد ظل ينغص حياتي، القهوة!

ظللت أبحث وأبحث طوال السنين، شربت من محلات فاخرة وأخرى متواضعة.

تعلمت صناعة قهوتي التركية، استخدمت أنواعًا محلية وأخرى مستوردة، لكن بلا فائدة مهما فعلت لم أجد ضالتي. طال بحثي، وخلال بحثي فقدت أبي بعد مرض قصير، فانتقلت للحياة بالكامل مع جدي.

صارعت الحياة وصرعتني، محاولات نشر، إشادات بسيطة، مبيعات أبسط، جوائز نقدية صغيرة، ثم أكبر فأكبر، كبوات، وصحوات، والقليل من الانتصارات... لكن بلا قهوة حقيقية!

نصحني أحد الأصدقاء مدمني القهوة مثلي بتجربة أنواع أخرى، فالحياة حافلة بالمتع، والقهوة كالنساء كل منها له طعمه ورونقه و.... مرارته!

توجهت للأمريكية، الفرنسية – الأصلية لا التي خدعنا طوال العمر باسمها – حتى وصلت للإيطالية.

ارتحت قليلاً معها؛ فهي قصيرة، صغيرة، مشبعة، متمردة، وهي الأقرب لقلبي حتى الآن مثلها مثل بنات جلدتها!

وإن كانت ما زالت تفتقد عنصرًا ما لا أدري مصدره أو تعريفه – القهوة لا النساء الإيطاليات – ما زال ينقصها شيء غائب عن ذهني ولساني سنين وما زلت أفتقده.

تلفتُّ حولي عندما وصلت لتلك النقطة وجدت نفسي قد تجاوزت الخمسين من العمر!

ذهب جدي هو الآخر مع من ذهبوا، لكني صرت مؤلف روايات معروف، حاصلًا على العديد من الجوائز المحلية والإقليمية، تحولت بعض أعمالي إلى دراما تليفزيونية وأفلام، زرت عدة مهرجانات ومعارض كتب دولية، وفي كل دولة زرتها بحثت عن القهوة.

أول مكان أسأل عنه موظف استقبال أي فندق في أي مكان أزور:

من هو أفضل متخصص يصنع القهوة في مدينتكم؟

ظللت على ذلك الحال حتى قادتني الأقدار لإيطاليا نفسها، للاحتفاء بوصول فيلم من تأليفي لترشيحات جائزة سينمائية هامة، صحيح أن ذلك إنجاز مهم لكن السعادة الحقيقية كانت في وصولي أخيرًا إلى فخر مصنعي القهوة الشهيرة.

ورغم مشاكل القلب التي أصبحت أتعرض لها باستمرار، ورغم تحريمات الطبيب المستمرة بعدم تناول القهوة والابتعاد عن الضغط العصبي – كيف لمن يخترع ويتحكم في حيوات شخصياته ألّا يتعرض للضغط العصبي-رغم كل ذلك كان السؤال الأول المعتاد لفتاة الاستقبال عندما وصلت فينيسيا:

ما هو أفضل مكان يصنع القهوة في مدينتكم؟

قالت بإباء مخلوط بعجرفة وفخر ما معناه، أن بلادها هي مركز صناعة القهوة، وأي مقهى سأجلس عليه سيتحفني بقهوة لم ولن أذوق مثلها قط!

ثم شدَّدَت على ميدان (سان ماركو) بالتحديد.

أعجبني وأثار تعجبي ثقتها واعتزازها بثقافتها، فانطلقت بلا هدف أتنقل في

المجهول بلا تطبيق تحديد المواقع، بلا انطباعات مسبقة، وبتوقعات مرتفعة. لا أحمل سوى الحاسب المحمول لعلي أحظى ببعض الإلهام من المكان المثير للخيال، أثار فضولي المقهى الذي أجلس عليه الآن، كل ما فيه يعبق برائحة التاريخ، موقعه المتطرف في أحد الشوارع الجانبية، المقاعد، الإضاءة، الحوائط، الأبواب، حتى ملابس النادل ضيق الخلق الذي طلبت منه قهوتي، كل تفصيلة هنا تحمل من التاريخ ما يفوق عمري بأعمار مضاعفة.

قهوتهم جيدة فعلًا، ليست ما أبحث عنه بالتأكيد، لكن ....

أفقت من خواطِري علي يد النادل إياه تهزني!

اللعنة، تجاوزت عن قلة ذوقه في تلبية طلبي مسبقًا، لكن أن تصل إلى التلامس الجسدي فذلك أمر غير مسموح بالأخص لشخص مثلي.

ما هذا؟ لماذا تبدو عليه ملامح الجزع؟

لماذا يهزني بتلك القوة؟

لماذا يصيح بزملائه ويلتفون حولي؟

سأختنق من التزاحم وأنا الذي لا أطيق التلامس ... ما هذا ؟ كيف سأختنق وأنا لا أتنفس أصلًا!

لهذا السبب يبدو النادل مرعوبًا، الآن فهمت!

نعم، ويبدو أني درت العالم، فتشت في كل مكان، حتى انتهى المطاف أخيرًا، ولم أعثر على القهوة المثالية بعد.

قهوتك يا أمي.

7

سحور فاخر مع الرئيس

"دكتور عبد الحميد، حضرتك مَدعُوّ لسحور مع فخامة الرئيس بشكل شخصي".

أعِيد تدوير الجملة واحتمالاتها في رأسي للمرة المائة وأنا أعيد ضبط ربطة عنقي الحمراء للمرة الألف.

سحور مع الرئيس.. يا الله!

كم تمنيتها، بل حلمتُ بها مرات ومرات، ولمَ لا؟! فقد صعدت السلم العلمي حتى منتهاه بشهادات علمية أعجز عن تذكُّرها، منها الماجستير، والدكتوراه الفخرية تسلَّمتُها من عدة هيئات دولية مرموقة، أما السلم الوظيفي الجامعي فقد اختصرتُه، وركبتُ المصعد، بل الصاروخ الوظيفي فتكرر في سيرتي الذاتية الكثيرُ من كلمة "الأصغر".

أصغر طالب ماجستير، حاصل على ماجستير، أصغر دكتوراه، مُدرس مُساعِد، أستاذ، رئيس قسم، حتى رئيس الجامعة الأصغر في تاريخ مصر، صرتُ محط أنظار الجميع، زملاء حاقدين حاسدين مُتسلِّقين، طلبة مُتطلعين، رجال أعمال طامعين في نجاح أبنائهم أو تعيينهم كمُعيدين، وعلى رأسهم طبعًا محَطّ أنظار السُّلطة!

ابتسمتُ ساخرًا أمام المرآة عندما وصلتُ لتلك النقطة من ذكرياتي، حديثي الساذج مع سوسن عبد المهيمن فاتنة الجامعة، عندما كنت طالبًا، عن تواصُل الجهات الأمنية معي لبحث التعاون المستتر المستمر؛ ظاهرُه الصداقة مع مسئول الأمن، وباطنُه نقل أخبار الزملاء والانتماءات والتحركات السياسية. كم ثارت سوسن واعترضت على مجرد العرض، وكم سخرتُ من نفسي عندما فكرت مرتين قبل قبول العرض!

وكم تأكدتُ أني على الدرب الصحيح عندما كنتُ المشرف على رسالة الدكتوراه الخاصة بها بعدها بسنين!

بالطبع تركَتني عندما قبلتُ، وبالطبع ترقَّيت عندما قبلتُ.

ترقيث بسرعة لا تُقاس بالمقاييس الوظيفية؛ فقد اكتشفتُ موهبة فِطرية في نفسي.

موهبة التلصُص على أخبار الآخرين، ونقل ما يهم ويلزم إلى مَن يستفيد ويفيد، وإن لم أجد ما يهم فلنستغل موهبة التأليف الكامنة؛ لنَسج بعض خيوط الحبكات الدرامية الكافية لإثارة لُعاب المسئول والاستفادة من الرضا السامي، ولا بأس من إزاحة بعض العراقيل عن الطريق.

دكتور ماهر بطرس الأقدم والأكفأ والمرشح الأفضل لرئاسة القسم بعدما مات الرئيس السابق، فِيتناثر لسمعي شذرات، أو لنَقُل شائعات عن أقاربه المقيمين في أمريكا وعلاقتهم بأجهزة الأمن هناك. الزميل الملتزم هو عضو في جماعة، لو كان أكبر في السن فهو يتلقى تمويلًا من دول معينة تريد الإطاحة بنظام الحُكم، ولو كان أكثر ثراءً فهو بنفسه أحد المموّلين!

هذا فاسد، ذلك مُرتشٍ، تلك على علاقة بسائقها، تلك على علاقة بتلميذها!

والكثير من هذا القبيل، الاختيارات لا محدودة، والقائمة لا تتوقف عند حد، كل مهمتي هي اختيار التفاصيل التي تدعم الخبر بدراسة ماضٍ وحاضر المرجو إزاحته، ثم سَبك مقادير الطبخة. صحيح أن المنقول أغلبه غير صحيح، لكن إثارة الشبهات وحدها كافية لإزاحة الخصوم، بسبب التسلسل المتتالي للإشاعات، أسرّ بأحدها لزميل مع التشديد على الكتمان وعدم البَوح، ولحَبك الحكاية أرسم بعض نظرات مُتلفتة يتبعها ندم والمزيد من التأكيد على السرية، ولنتراجع بعدها ونترك الأمور تأخذ مجراها المرسوم مسبقًا، حتى تعود إلى أذني محمَلة بتفاصيل لم أخترعها، وبالتالي تصل للمسئول رفيع المقام من عدة مصادر.

وأخيرًا، إخبارية واحدة دقيقة مقابل كل عشر إخباريات مُلفقة، كافية لتصديق المسئول وضمان استمرار اتفاقيات التعاون المشترك.

والنتيجة قمة المجد، أصغر رئيس لأكبر جامعة حكومية.

لكن ينقصني شيء واحد.

السُلطة.

الشلطة نفسها، وها هي تأتي إليَّ اليوم لا ريب.

فما عرفته عن الرئيس من أوساط المقربين هو تديُّنه الشديد، واتخاذه القرارات المصيرية كلها بعد الصلاة، وأنا اليوم مَدعوٌ من قِبَل المؤسسة نفسها-أي منه هو شخصيًا بالتبعية- للسحور المسبوق بصلاة التراويح، وتزامنَ ذلك مع تسريبات عن تعديل وزاري محدود مُرتقب مُفاجِئ مُتوقَّع!

إذًا فهي الوزارة.

الحلم القديم، كم تمنيتها منذ كنت شابًا غريرًا، وكم سخرت سوسن من حلمي هذا.

صحيح أني ابتلعت قولها، ولكنه لم يستقر في بطني.. بل في عقلي، وكان هو أحد الدعائم التي استندت عليها عند انتقامي منها.

بالطبع انتقامي، فلم أكن لأتركها تستمر في سلام بعدما رفضتني وقبلَت الزواج من طالب آخر كان زميلنا يومًا، سافرت بعدها معه لبلاد النفط، ثم عادت بعد سنين لتستأنف حلمها القديم في الحصول على درجة الدكتوراه، فحاربتُ واستغللتُ كل نفوذي لأصبح المشرف على رسالتها.

آه من نشوتي وهي تفتح باب مكتبي لتفاجأ بي أجلس أمامها وأخبرها بترحاب بالغ أن الدكتور المكلّف بالإشراف على رسالتها اعتذرَ لأسباب تخصُّه وتوليت أنا تلك المهمة. النظرة التي ارتسمت على وجهها لا تُقاس ولا تُوصف ولا تُقدَر بثمن. حتى اعتقدت أن مُتعتي من مضاجعة سوسن نفسها لم تكن لتساوي تلك النظرة!

لكني هدَّأت من روعها واستقبلتها كأحسن ما يكون، ذكَّرتها بالعيش والملح والأيام الحلوة، مسحت من داخلها كلَّ خوف راودها بألا تنجح بسبب الموقف القديم، استهزأت بما فات.. كنا شبابًا طائشًا وكلنا نُخطئ، الماضي مات بلا رجعة.

فارتسمت على وجهها بسمة ارتياح وتنفَّست الصعداء. شهور تكدح في الرسالة وأنا أدعمها بالمراجع وأدعمها معنويًا حتى قاربت على يوم المناقشة، ولكن قبل ذلك الحدث الجلَل بسويعات تنامى إلى علم هيئة التدريس معلومات عن حادث مؤسف؛ فقد ألقى الأمنُ القبضَ عليها في بيتها بسبب وشاية مجهولة المصدر

ربطت بين إقامة زوجها في الخليج والجماعات المتشددة. مَن يُصدق هذا الهراء؟!

حتى إن البعض يدّعي انتماءها هي وزوجها لتنظيم سري ينادي بقلب نظام الحُكم. اللعنة على أولاد الحرام!

يومَ تمَّ المراد وحدث ما حدث شعرتُ بنشوة لا تُوصف، كأنما قد صغرتُ عشرات السنوات دفعة واحدة، حتى إنني طلبت المومس المفضلة عندي، وعندما أتت التهمتها ثلاث مرات متتالية بمنتهى العنفوان، فاعتقدتْ أني تناولتُ مُنشطًا ما، ولكن ما لا تعلمه بنت الحرام أن تخيُّلي لنظرة الانكسار في عينَي سوسن كان أقوى من أقوى مقوٍّ جنسي في التاريخ.

كم أتمنى يا سوسن أن يصل إلى مسامعكِ في مكانكِ الذي أجهله الآن خبر تقلُّدي منصب وزير. هنا يكون الانتقام أسطوريًا كاملًا.

تضاءلَت البسمةُ بعض الشيء على وجهي المرتسم في المرآة عندما تذكّرت أني لستُ المدعوَ الوحيد لذلك الحدَث الجلَل؛ فقد أطلقتُ كافة قدرات شبكة علاقاتي اللامحدودة لمعرفة إجابة سؤالين: تأكيد سبب الدعوة؟ ومَن تمَّت دعوته غيري؟

لكن كما تمَّ التشديد عليَّ في المكالمة بتوخي الحيطة وكتمان الأمر لدواعٍ أمنية، فقد تم التشديد على باقي المدعوِّين بالمثل. بسابق خبرتي في التعامل مع تلك الجهات أعلم أنهم لا يمزحون في تلك الأمور، فلو طلبوا الكتمان وعدم إخبار مخلوق فلا بد من الانصياع؛ لأنهم لو علموا - وسيعلمون- فذلك يُهدّد الأمر بالكامل، وقد ينسفه من جذوره.

لكني علاقاتي على مدار السنين لم تُخيب رجائي، فعلمتُ أن الدعوة شملت غيري. لم أنجح في معرفة العدد، لكن تأكدتُ من شخصين بالتحديد، ومن خلال اسميهما وتحرياتي علمت أن ظني بموضوع الوزارة أقرب للصواب. فكلاهما يماثلني بالمكانة الوظيفية، شخصيات مرموقة مجتمعيًا، ولها ثقلها في الشأن السياسي، بل إن أحدهما عضو فعّال في الحزب الرسمي للدولة، لكنه لا يُمثل خطورة حقيقية، فلديه في تاريخه زلَة سابقة عن علاقة قديمة بإحدى السكرتيرات في شركته الضخمة للمقاولات تم تداركها ودُفنت في طيّ الكتمان، غير أن السنين علّمتني مهارة نبش القبور وإخراج الكنوز فأستطيع استغلالها

للإطاحة به.

الآخر هو المشكلة الحقيقية. رجل محترم، تاريخ ناصع البياض لا تشوبه شائبة، سمعة ممتازة، مكانة اجتماعية وعلمية ذائعة الصيت، لبق وسبق له التعاون مع الأمم المتحدة بسجل مشرف، باختصار المرشح المثالي.

رهاني الوحيد لكسب المعركة هو مقابلة الرجل الكبير أولًا، طبقًا لحساسية المنصب المعروض، فلا بد للرئيس من استقبالنا كلٌ على حدة، على الأقل لخمس دقائق، حتى يحسم القرار النهائي، لو نجحت في الدخول قبل الآخرين فأنا أضمن الفوز.

سر تلك الثقة أني قد قمت بواجبي المنزلي على أحسن وجه، من بعد تلك المكالمة انطلقت أدرس تاريخ الرئيس كاملًا، منذ كان في الكلية الحربية بالتفصيل، بل صنعت العديد من الملخصات لأهم منجزات حياته قبل السلطة. ذهبت لمنطقة سكنه القديمة، تعرفت على معالمها وصنعت ذكريات زائفة مشتركة في نفس الأماكن. أطلقت كافة قدراتي الخاصة لأصل للمقربين منه حتى أعلم طِباعه، هل يُحب المستمع الجيد أم المحاوِر؟

يريد أفكارًا أم السمع والطاعة؟ يحب لقب فخامة الرئيس أم الزعيم؟

حسنًا، حسّ فكاهته عالٍ. فرتبت في ذهني بعض الدعابات الخفيفة المناسبة لجلال الموقف لتذيب جليد ورهبة اللقاء، ولا تكسر مهابته، وتترك انطباعًا هزليًا عني.

زبيبة الصلاة. تلك كانت خدعة صعبة ومؤلمة؛ لأني اضطررت لإلصاق جبهتي بالساعات إلى ورقة صنفرة حائط خشنة.

طريقة قاسية؟

نعم، أعترف، لكنها الطريقة الأسرع لاكتساب تلك السمة المميزة التي تُضفي الجلال المتلائم مع الموقف المتشابِه مع جبهة الزعيم.

أما جوهرة التاج، والدليل الدامغ على عقليتي التحليلية الفذة، فكانت ألوانه المفضلة. درست كافة خُطبه ولقاءاته التليفزيونية، جمعت لقطات ثابتة ومتحركة

له. استخلصتُ منها معلومات شتى وضعتُها في جداول إحصائية على الكمبيوتر، لأخرج بنتائج محددة ساعدتني على اختيار ألوان بذلتي لتتناسب مع ذوقه، واشتريتها من نفس الماركات العالمية التي يُفضّلها، بل اشتريت حذاءً خاصًا نعله ضئيل لا يكاد يتجاوز الملي مترات القليلة حتى لا أبدو أطول منه قامةً فأثير حساسية قديمة لديه عن مشيته التي تأثرت بعض الشيء بإصابة قديمة ناجمة عن مناورة عسكرية إبان شبابه، فأصبح يعرج بعض الشيء بشكل غير ملحوظ إلا للمدقّق مثلي.

و....

قطع تسلسل أفكاري رنينُ هاتفي المحمول برقمٍ محجوب، فأفلت قلبي دقّة. لقد وصلوا، أخيرًا حانَ الموعد المرتقَب. وبالفعل عندما أجبتُ أخبرني المتحدّث أن السيارة تنتظرني أسفل الفيلّا لتنقلني لمكان التجمُّع.

التجمُّع!

تعبير غريب، لكني أزحته عن ذهني وأكملت الرتوش النهائية على مظهري؛ برشة كثيفة من عِطْر ثقيل غربي مخلوط بعود عربي يُفضّله سيادته منذ كان مُلحقًا عسكريًا في سفارتنا بإحدى دول الخليج، ثم نزلت.

خرجت من المصعد لأجد أوائل البشارات؛ رجلًا عملاقًا مفتول العضلات تحت بذلة سوداء تكاد تتشقق من كُتلته الجسدية مُقطب الجبين يقف مستندًا على سيارة سوداء بزجاج معتم. ما إن لمحني حتى انحنى ليفتح بابها الخلفي، أكاد أقسم إن لوحاتها تحمل أرقامًا خاصة.

تهلّل وجهي مع تقدُّمي نحوه ببُطء مُتعمَد حتى لا تنفضح لهفتي. بالطبع؛ فتلك هي مظاهر المنصب الجديد: الحراسة الخاصة التي ستتضاعف فور تسلُّمي المنصب بشكل رسمي بلا شك. لكني تمالكت رباطة جأشي وثبتُّ ملامح باهتة على وجهي لتُخفي إثارتي، ثم ألقيت عليه التحية وأنا أتحرك لأركب بتؤدة من دون أن تتلاقى عيناي مع عينيه.

- مساء الخير يا ابني، هل سنتجه إلى مكان فخامته مباشرة؟

- مساء النور معاليك، لا، مكان التجمُّع أولًا.

قالها بنبرة مُحايدة لا تحمل أي انفعال، لكني لم أنتبه للإجابة قدر توقُّفي عند كلمة "معاليك" التي رقص قلبي لها طربًا، وقلت لنفسي وقد ارتسمت على شفتيَّ ابتسامة راحة فشلت في إخفائها: "والله وبقيت معالي يا عبدو".

لكني سرعان ما لملمت أطراف البهجة من ملامحي، واستويت على المقعد الخلفي شديد الضخامة والفخامة، وتمتمت بنبرة محايدة بدوري وأنا أشيح بطريقة أصحاب المناصب العليا وهم يتواضعون مع خدمهم:

- توكّلنا على الله.

وبالفعل؛ تحركَت العربة بلا أي صوت يُذكَر بسرعة متوسطة في طريق لم أعِره انتباهًا، فقد استبدَت برأسي الأفكار مرة أخرى.

أعدتُ تذوّق كلمة "معاليك" في ذهني عشرات المرات، يا لها من كلمة فخمة لها وَقْع يملأ النفس بالحبور. تبادرَ إلى ذهني أن الرجل لن ينطقها هكذا على سبيل اللغو. لا بد أنه يعلم بطريقة ما أني مرشح للوزارة، فبالتأكيد رغم تكتُم تلك المؤسسة، فهي بالنهاية مصلحة حكومية، صحيح أن السرية تأتي بالمقام الأول، لكن ذلك لا يمنع نميمة لسكرتيرة رأت أمرًا مكتبيًا ما مع صديقة من إدارة أخرى أثناء لحظات خاطفة مع فنجان القهوة، بعده نقلت تلك الصديقة الخبر لموظفٍ ما ترتاحُ للحديث معه؛ فأخبر بدوره قريبه العامل في قسم بوفيه الحراسات الذي تودَّد لذلك الوحش الآدمي القابع في المقعد الأمامي. نفس الكلام كل مرة، طالما خرج السر من حيّز الشخصين لم يعد سرًا، حتى لو شدَدت وأقسمت أغلَظ الأيمَان.

صحيح أن تلك التسريبات كانت طريقتي لأسرار ومكائد لا تُعد ولا تُحصَى، لكنه تسيُّب حقيقي، غير أني بكل تأكيد قادر على منع تلك المهازل في وزارتي المرتقبة. لن أخذل "الراجل الكبير". أعلم أن ذلك هو مصيري، اختبار مستمر يُتيح له التأكد من دقة اختياره ومدى صلاحيتي للاستمرار في المنصب، بالطبع الاستمرار؛ فأنا لم أدخل الملعب لأخرج مع أول تغيير في التشكيل.

لقد أتيت لأبقى!

وسأحارب ما بقي لي من العمر نحو هدف أسمى، وهو الموت وأنا معالي الوزير عبد الحميد خليل، فقط معالي الوزير، لا الوزير الأسبق، ولا حتى الوزير السابق!

ربما مع المزيد من المثابرة والطاعة المطعّمة بالعلاقات التي أجيد صُنعها بمنتهى السهولة؛ أن أنجح في المزيد من الترقّي وأصل إلى المركز قَبل النهائيّ، المركز الذي سيُذكر في كتب التاريخ: معالي السيد رئيس الوزراء!

يااااه على اللذة والقشعريرة التي انتفض لها جسدي من فوره، نشوة تُقارب الرعشة الجنسية، بالطبع؛ فمَن الأحمق الذي يُفضّل جسدَ امرأة ولو كانت ملكة جمال الكون على منصب مثل هذا! منصب يتحكّم في مصائر البلاد والعِباد، يقبض على مقادير الناس وأقواتهم، بل قدَر يُحييهم ويُميتهم!

السُلطة يا عبد الحميد هي النشوة الحقيقية. المتعة التي لا تستمر ثواني معدودة مثل النساء، بل تتجدد كل يوم وكل ساعة وكل لحظة.

بالطبع. هل تكدّر صفوي اليوم؟

إذًا فلنفرض ضريبةً جديدة، وليُعانِ الجميعُ مثلي.

صحوتُ رائق المزاج؟

فلنأمر بزيادة المعاشات مائة جنيه كاملة، علّنا نرفع المعاناة عن أمهاتنا وآبائنا المواطنين الفقراء.

هُزمَ فريقُ البلاد في مباراة مع دولة مجاورة، لماذا لا نهدّد بقَطع العلاقات وسَحب السفير؟

آااه أنا وأنا فقط الآمِر الناهـ... بالطبع بعد فخامته.

وبالحديث عن فخامته، فما المانعُ من تخيُّل حدثٍ ما؛ انقلاب أو ثورة مثلًا يُطاح فيها به؟

لا بد أني سأقرأ خريطة اللعب مبكرًا كعادتي وأنضم للجانب الرابح، فأتحوَّل إلى أيقونة ثورية كانت تختبئ في أحضان الباطل لتهزمه بعدما كنت رمزًا من رموز الحُكم.

وبعدما تستقر الأمور، وبقليل من الدعاية التي أجيدها هي الأخرى، أقفز القفزة الأوسع، وتتحول كلمة "معالي الوزير" إلى فخامة الرئيـ...

أنقذني صوتُ الوحش إياه من شلّال أفكاري المتدفق المثير للمتعة عندما قال وهو يهبط ليفتح لي باب السيارة الخلفي:

- وصلنا.

***

الساعة الثامنة من صباح اليوم التالي.

أجلسُ على مقعدي الكبير بغرفة نومي عاجزًا عن استيعاب ما حدث أو إعادة تدويره في رأسي، لا أستطيع فَهم ما كانَ على الطريقة الصحيحة، ربما لو أعدتُ تذكُّر تلك السويعات الماضية لنجحت في الفهم.

ولكن التذكُّر وما أمَرَّ من ذلك التذكُّر، طعمه في حلقي مُر كالعلقم.

ما إن نزلت من السيارة الفخمة إياها، حتى وجدت مجموعة من الحافلات الخاصة بالرحلات أمامي، يتجمهر حولها مئاتٌ من الرجال والنساء بكامل الهندام والتأنق. يتزاحمون على الركوب كأنما تُوزَع داخلها الأموالُ بالمجّان!

قامات علمية واجتماعية وتعليمية تهتز لها جنبات الحياة السياسية في مصر، وتمتلئ بأخبارهم الصحف.

هل هذا الأشيب الذي يدفع السيدة البدينة أمامه لتصعد الحافلة بكل صفاقة هو الأستاذ دكتور شاهين عبد البر خبير القانون بذاته؟

اللعنة! أصلًا السيدة التي يدفعُها هي واحدة من أهم محاور الحركة الثقافية في منطقة وسط البلد.

ما الذي يحدث هنا؟

أهو يومُ الحشر المصغَّر؟

هل كل هؤلاء يطمحون لمقابلة فخامته؟ لو كان تجليًا جديدًا لأحد الأنبياء أو الأولياء ما تقاتلوا بتلك الفجاجة والسفور!

فوقفت مشدوهًا أراقب ما يحدث لثوانٍ أو دقائق أعجز عن تذكُّرها.

أفقتُ فالتفتُ للوحش الآدميِ الذي أتى بي هنا لأستفسر فلم أجده.. رحل.

رحلَ وتركني في تلك المأساة الإغريقية الجديرة بهوميروس.

لم أقدر على الانضمام للصراع من أجل البقاء، ولم أقدر على البقاء بعيدًا عن الصراع، شُلَت الخلايا الرمادية في عقلي بالكامل.

لكني لم أبقَ على ذلك الوضع طويلًا، فقد تدخَل مجموعة من الثيران يطابقون من أوصلني لهنا في كل شيء: الملبس والحجم، حتى الملامح أكاد أقسم إنها متشابهة، لكن لم تكن متطابقة؛ كأنما تم استنساخهم في مصنع لآلات الدمار البشري. تدخَلوا ليُعيدوا النظام لتلك المجموعة الغوغائية من البشر.

بكل حزم وحسم والكثير من الغِلظة، في ثوانٍ معدودة نجحوا في إعادة ترتيب الصفوف وتنظيم عملية الصعود للحافلات. انتظرتُ قليلًا حتى خف الزحام وتوجَهت لأحدهم. توسمت فيه بعض الآدمية وسألته عن السحور المرتقَب مع فخامته. فأكد أنني في المكان الصحيح.

أخذت أضرب أخماسًا في أسداس، الدعوة وصلت لي من مؤسسته، نعم، ولكنها تحمل أمرًا مباشرًا مغلفًا بصيغة دعوة، إذًا فلا مجال للانسحاب بما تبقى من الكرامة، وحتى إن حدث فلا أملك وسيلة تُعيدني من هذا المكان الذي أجهله.

فعقدتُ العزم على المضيِ قدمًا في ذلك الأمر حتى الثمالة.

فانتظمتُ في الطوابير مغصوبًا وتحمَلت الدفعات التي حاول أولئك الثيران جعلها رقيقة، لكنها خرجت كدَانات المدافع. استويتُ في المقعد الأخير تُزاحمني فيه ثلاث من القامات إياها، الكبيرة مقامًا وحجمًا، فأكملوا القضاء على الهندام والأناقة التي صرفتُ عليها الألوف حرفيًا.

تحركَتِ الحافلات باتجاه المكان المنشود، وكُلي أمل أن ما يحدث هو مجرد عبَث، وأني وُضِعتُ مع هؤلاء على سبيل الهفوة أو الزلَة التي لن أتغاضى عنها، كعادتي سأبدو متسامحًا وأعفو عن المخطئ، لكنني سأتربص به حتى أحلف اليمين الدستورية وبعدها سيكون الانتقام الذي لا يُبقي ولا يَذَر.

آه، تذكرت اليمين الدستورية، ما إن استشففت موضوع الترشح والوزارة حتى بحثت في مكتبتي عن كتاب يحتوي نص اليمين الدستورية وكتبتها في ورقة، ثم تدرّبت عليها يوميًا عشر مرات أمام المرآة وأنا أرتدي بذلتي الكاملة بربطة العنق والحذاء اللامع، والذقن الأملس وتصفيفة الشعر المثالية، كأنها بروفة فيلم سينمائي.

في كل مرة كنت أسجل المشهد وأعيده أكثر من مرة لأسجل الأخطاء وأدرسها وأتلافى تكرارها.

هذه المرة لم أنظر لعينَي فخامته، تلك المرة تلجْلجت في مقطع "وسلامة أراضيه" عندما تذكّرت مشكلة الحدود بين بلادنا والجيران.

وهكذا تدربت وتدربت حتى أتقنتُها تمامًا، فلا مجال للأخطاء، في المرات الأخيرة أصبحت أجيد إلقاءها بالكامل بدون النظر في الورقة بمنتهى الثبات الانفعالي مع بسمةٍ خفيفة واثقة كأنما انضمامي للمنظمات السيادية هو أمر مُعتاد أفعله كل صباح.

أفقت من خواطري على وصول رتل الحافلات لباحة المسجد العملاق، العملاقة بدورها، لنجد على كل حافلة أحد الثيران الآدمية أكثر ضخامة من سابقيه، يقف مُتحفزًا يرمقنا بصرامة قبل أن يفتح الباب فينظم نزولنا بالترتيب كعساكر الجيش لنلتحم مع أفراد الحافلات الأخرى في خط طويل لا بداية له ولا نهاية.

حاولت الخروج عن الصف لأتكلم مع أحدهم وأشرح وجودي الخاطئ هنا، فأعادنا للصف بلهجة حاول أن تكون لبقة لكنها صارمة لا تقبل الجدال أو الاعتراض، لهجة مَن تعوّد الأمر وتعوّد من الآخرين الطاعة، فعُدت للصف صاغرًا.

لأتلقى الصفعة الثانية على كبريائي المعنويَ!

فالطابور الطويل يتجه نحو مجموعة أخرى من الثيران تحمل العديد من العلب الورقية مدبوغة بعَلَم الجمهورية وصورة فخامته.

ولما تزايدَ اللغط بين الجموع، كانت هي شخطة واحدة فسادَ الصمت المغتصب من جديد، وصلت إليهم وتسلَّمت العلبة لأكتشف أنها.. السحور.

هذا هو السحور، ولن نقابل فخامته!

ولن أقابل أنا فخامته!

رفضتُ المزيد من الإهانات وقمتُ لأرحل من هذا الاختناق بالوهم، وأن أفك ربطة عنقي وأمنع دموعي من الانزلاق.

لأتلقى الصفعة الثالثة على كبريائي المعنوي!

وأتت بصوت صارم مُغلّف بالاحترام: "ممنوع، ولن يرحل أيُّ فرد حتى صلاة الفجر مع فخامته".

حاولتُ الاعتراض، فتلقّيت نظرةً واحدة، مجرد نظرة جمّدت الدم في عروقي حتى كدتُ أفقد التحكُّم في مثانتي، فقدتُ التمسك بركبتيَّ المرتعشتين فجلست حيث أنا.

جلستُ مع الجالسين لسِتّ ساعات متواصلة على الكراسي ممنوعًا من الحركة، سِتّ ساعات حتى نُودي لصلاة الفجر، فصلّى فخامته بالداخل ونحن كلنا بالخارج، ثم غادر!

نعم، ببساطة.. غادر.

ولم يرَه أيٌ من الحضور، فلم أعلم كيف عُدتُ بالحافلات ولا كيف وصلتُ إلى البيت.

ولم أذكر مَن تحدّث معي. كل ما أذكره هو انقباضة قلبي التي تتصاعد الآن.

تتصاعد وأنا أفتح موقع التواصل الاجتماعي "فيس بوك" ليصفعني المانشيت الرئيس لموقع إخباري شهير يُشير لمقابلة فخامته مع...

آه!

8

تقرير

تقرير نيابة...... العامة في الواقعة المذكورة.

انتقلنا نحن.... بصحبة مُعاون المباحث الرائد.... للمعاينة في البلاغ المقدَّم من........ حارس العقار رقم .... الكائن في..... الخاص بالسيد......

وقد أفاد أنه يحمل نسخة احتياطية من مفاتيح مسكن المذكور أعلاه لتلبية احتياجاته اليومية؛ من مشتريات وتنظيف وخلافه بسبب طبيعة حياته منفردًا بلا زوجة أو أولاد، حيث إنه عاش كرجل محترم طوال فترة إقامته في البناية لم يُسمع له صوت، ولا تشاجر مع جار أو بائع، كريم، هادئ، قليل الطلبات، جدول حياته منتظم: من عمله بالجامعة إلى المنزل، وبالعكس، لا تتحرك سيارته لأي مشاوير أو نزهات إلا فيما ندر.

لم يتزوج، ولا تزوره النساء، ويُعاوده عدد قليل من المعارف على فترات متباعدة، لا يُعاقِر الخمور، حياته تقتصر على عمله الذي يُقدسه. كثيرًا ما تباسَطَ مع عُمال توصيل الطلبات عندما يسأله أحدُهم استشارةً طبية بأن كلمة "دكتور" التي تسبق اسمه لا تدل على عمله في الطب أو العلاج، بل درجة علمية متخصصة في مجاله. يُسهب في شرح أهمية عمله ومدى حُبه له، بعدها ينقد عامل التوصيل "بقشيشًا" سخيًا كاعتذار بسيط عن تعطيله كل تلك المدة.

ولا يشتبه الحارس في أي تدخل أو اعتداء من أي نوع، بسبب طبيعة المتوفَى المسالمة وسنه الكبيرة مع وقاره وشيبته، وأكد على عدم امتلاك أي أقرباء أو معارف لمفتاح المنزل سواه، حيث اعتاد على تنظيفه بالكامل يوم الجمعة وطهو بعد الأطعمة البسيطة تكفيه لمدة أسبوع، يشكره الطبيب بعدها بحرارة ويُجزِل له العطاء بل، ويقسم عليه أن يقاسمه الطعام، عندها يُسهب في الحكي عن اختياراته التي ندم عليها وعزوفه عن الزواج.

شعوره بالوحدة الشديدة في ليالي الشتاء الباردة، فلا يؤنسه إلا "جرامفون" قديم يعتز به، ويشتري أسطوانته السوداء الكبيرة القديمة من بائعي الأنتيكات

بأعلى الأثمان، فهو مُصِرَ على أن صوت أم كلثوم المنبعث منه له شجن خاص يُعيد إليه ذكريات الأهل والأحباب الذين انفضُوا من حوله.

وتصادف أن حارس العقار لم يحضر في الجمعة المتفَق عليها بسبب سفره إلى بلدته في الصعيد– بعد استئذان الدكتور- لقضاء العيد، الذي وافق بمنتهى الحبور بعد أن لمَح لانتظاره خبزًا عظيمًا يشتاق إليه منذ سنين، ثم نقدَ الحارس مبلغًا من المال كـ"عيدية" والسعادة تتقافز من عينيه.

مرت الإجازة، وعندما فتح الحارسُ باب المنزل تصاعدت إلى أنفه رائحة زنخة خفيفة، لكنه تجاهلها، ودخل بقهوة الدكتور التركية التي يُفضلها في صباح كل جمعة من يده. عندما وجده بكامل ملابسه ومُلقى على وجهه فاقِدًا للنطق، حاول إنعاشه، ولكن بلا فائدة، فقام بتقديم البلاغ من فوره على رقم شرطة النجدة.

وبمراجعة التقرير الشفويّ المبدئيّ للطب الشرعيّ المصاحِب للضبطية تبيّن الآتي:

المذكور تُوفِّي إثر أزمة قلبية انتابته في صباح اليوم بلا أي مظاهر أو آثار لاعتداء جسديّ أو شُبهة جنائية، وبفحص متعلقات الجثة وقت الحادث تبيّن أن بحوزته:

عدد واحد محفظة جلدية بها بعض كروت الائتمان، وأوراق إثبات الشخصية، وبعض أوراق النقد المحلية بقيمة بسيطة.

مفاتيح سيارة حديثة ماركة....

علكة بطعم النعناع أجنبية الصنع.

بطاقة وظيفته بالجامعة وتحمل اسم:

دكتور/ عبد الحميد خليل.

هاتف محمول من طراز..... بدون كلمة سر، وبعد فتحه تبين أن الشاشة كانت مُغلقة على لقطة مثبتة من موقع إخباري شهير بمانشيت النسخة الصباحية من الجريدة، وكان النص كالآتي:

استقبل فخامةُ الرئيس السادةَ المرشحين الجدد في التعديل الوزاري المحدود.

وبعد عدة مُداولات لاختيار الأصلح في الفترة القادمة الحرجة من حياة البلاد، استقر اختيار فخامته على السيد رامي عاطف لتولي حقيبة وزارة التعليم، والجدير بالذِّكْر أن معالي الوزير يُعَد من الكفاءات النادرة، وله العديد من الإسهامات في تطوير العملية التعليمية في الفترة السابقة.

أما حقيبة وزارة التعليم العالي، فقد فضَّل فخامة الرئيس تجديد دم الوزارة والاستعانة بالعناصر المتفوقة من أبناء البلاد بالخارج، بالإضافة لزيادة دور المرأة العاملة في المناصب القيادية، وبعد بحث كثيف وقعَ الاختيارُ على دكتورة من جامعة أمريكية شهيرة كانت قد هاجرت للخارج لمحاولة دراسة الأساليب والتقنيات المتطورة المصاحِبة لمجال تخصصها، ونجحت بالفعل في الحصول على أعلى المناصب والدرجات العلمية، بل والتدريس في الجامعة التي درست فيها، وهي معالي الوزير الدكتورة/ سوسن عبد المهيمن، والجدير بالذِّكْر أنه......

9

أنا خائف

نعم أنا خائف.

لن أمثِّل أو أتصنع أو أدَّعي، ربما للمرة الأولى في حياتي لن أكذب على نفسي أولًا وعلى الآخرين ثانيًا.

أنا خائف.

أرقد وحدي على فراشي في ليلة شتوية باردة، منكمشًا على نفسي، تتلاحق أنفاسي بوتيرة متصاعدة بلا توقف، البيت خاوٍ من حولي بعدما تناقصت عائلتي الصغيرة فردًا تلو الآخر، رحلوا وتركوني وحدي.

لا يُدركون أني خائف.

أعلم أن أجَلي يقترب، أشعر به بداخلي، لم أكن أصدِّق عندما يدَّعي أحد العجائز أنه يشعر بقُرب الأجل، لكني بالفعل أشعر به يقترب، ربما لن أكمِل على هذه الدنيا يومًا آخر، لكن ما يُعزِّيني أني عشت طويلًا، ربما أطول مما ينبغي!

ولكن أنا خائف من القادم، من المجهول، مما بعد الموت!

عشت حياتي كلها أردِّد لنفسي، ولكل مَن حولي أني لا أخاف.

لكني كنت أكذب!

منذ طفولتي أخاف أمي الطيبة الحنون شديدة العصبية، لم أكن أدرِك وقتها كم تعاني من تربية ثلاثة أولاد في منزل طويل عريض وحيدة، يعمل زوجُها طوال اليوم ولا يعود إلا قبيل النوم؛ ليستلم محبتنا "على الجاهز" كما كانت تقول دومًا.

لم يدُم ذلك الوضع بشكل طبيعي طويلًا، مرضَ أبي وزاده موت جدي مرضًا؛ فأقعِد عن العمل وانتهت حياة الرغد التي كنا نحياها بسبب عمله في التجارة، فلم نعُد أغنياء أولاد أغنياء كما كان يقول، وبدأنا في الإنفاق من التلّ حتى اختلّ. هنا اضطرَت أمي للعودة إلى عملها الذي توقفت عنه بعد الزواج، فتحولت لرجل البيت

وسيدته.

زادت شخصيتها قوة ومعها أعصابها المحترقة، ضغوط العمل والعودة إلى منزل ينتظر العناية وزوج حبيس الجدران تضاءل دوره حتى قارب على الاختفاء. وجد ضالته في شاشة الكمبيوتر يطالعها ليلَ نهار، وعندما يحين المساء ينام جالسًا فمرضُه لا يسمح بالمزيد.

زِد على ذلك ثلاثة من الأولاد تحوَلت حياتهم بسرعة من الطفولة العادية إلى الشجار والنقار، إلى مذاكرة وتأهيل للمدرسة. مرحلة خطيرة وتحتاج لتدخُّل مباشر من الأب، لكن بلا جدوى.

كل ذلك جعلَ أمي شُعلة من نار، عصبيتها لا تنضب، بينما أنوثتها تفعلُ، فأصبحتُ أخافها بشدة، حتى آتِي المهربَ الوهميَ؛

المدرسة.

ذهبت إليها مُتحمسًا، فربما تكون أمتع وأقل رعبًا من البيت، لكني كنت واهمًا؛ فقد كنت طفلًا سمينًا طويلًا فيعتقد مَن يشاهدني من بعيد لأول وهلة أنني مصدر للرعب، لكن عندما يقترب مني ويشاهد ملامحي البريئة الساذجة، ويقترب من روحي المخوخة يتأكد أنني مجرد بالون أجوف غير مُخيف على الإطلاق.

وما زاد من ذلك؛ هو أني أصغر أقراني سنًا، فقد أصرَت أمي بشخصيتها التي أصبحت كاسحة أن ألتحق بالمدرسة مبكرًا، فتكاتفت الظروف حتى أصبحتُ مركزَ اهتمام الجميع. الأطفال وجدوا فريسةً سهلة؛ سمينًا بطيء الحركة، بوَجْنة ممتلِئة ورغبة في التماهي مع الجميع، وتحمُّل الإساءة رغبةً في الاستمرار بين الزملاء، فكنت النموذج المثاليَ للتحرُّش اللفظي والجسدي والتنمُّر على شكلي.

أما الأساتذة فوجدوا فيَّ طفلًا سهل الانقياد، طيِّعًا مثل العجين يخاف من مجرد النظرات، فأخرج كلٌّ منهم قيح نفسه وصديد مُجتمعه في مرحاض روحي، أخرجه فيمَن لا يقدر على الرد أو الفهم وقتها.

فمرت سويعات المدرسة وكأنها قرون، أخشى فيها مجرد التنفس. أقبع في وسط الفصل، لا أنا في المقدمة مثل المتفوقين المنبوذين، ولا أنا في المؤخرة مثل

الفاشلين الأكثر شعبية، حتى في وقت الفسحة أتناول شطائري في ركن "حوش" المدرسة بعيدًا عن كل الأنشطة واللعب المنتشر بلا توقُّف، لا أتواصل مع أي زميل؛ اللهم إلا عندما يتحرش بي أحدُ التلاميذ الأكثر مشاغبة راغبًا في إحدى شطائر اللحم البارد أو المربى المختلفة عن خاصّته من الجبن الأبيض.

لكني تجاوزتُها، بمعجزة نعم، وعبرتُ منها بالكثير من المخاوف التي تحققت.

خفتُ من أقوى فتى في الفصل.. فضربني.

خفتُ من المدرس الشرس صاحب الصلعة الفسيحة.. فعنّفني.

خفتُ من امتحان الثانوية العامة.. فحصلتُ على أسوأ مجموع ممكن.

خفت من توزيع التنسيق.. فأُلقيتُ إلى جامعة في الأقاليم.

خفتُ من عدم الوقوع في الحب أثناء الدراسة الجامعية مثل زملائي.. فلم أفعل.

مَن التي ترضى بسمين مُترهّل تنقصه الوسامة وخفة الدم، وأمامها مفتول العضلات والظريف وفتى الشاشة بمقاييس عُمرنا!

خفتُ أن أتقرَّب من الجميلات محطّ أنظار الجميع.. فانتقيتُ الدميمات السمينات مثلي، أو بقايا طعام الآخرين، مَن استهلكها الآخرون شعوريًا وأحيانًا جسديًا. وللسخرية؛ بالرغم من ذلك لم ترضَ إحداهن بي.

وترددَ في جنبات عقلي وصفُهنّ لي: "أنتَ مثل أخي". عليكِ اللعنة أنتِ وأخيكِ وعائلتكم كلها. لا أريد أن أكون أخاكِ، أريد أن أكون حبيبكِ، حبيب أي واحدة، أريد أن أكون محبوبًا في المطلَق دون تحديد أي واحدة، أريد الشعور بالحب.

فقد كنت أخاف ألا أجد ما أستعرض به في مجالس المقهى مع الشباب، الكل يحكي مغامراته النسائية الحقيقية منها والخيالية، وأنا لا أجد ما أقوله، ولا أُجيد تأليف الحكايات.

فأحبني الرجال!

ربما لأني مُستمع جيد دائم الانبهار، لا أقاطع استعراضهم وأصدّق كلَ شيء.

هنا فطنتُ لنقطة قوة في نفسي لم أُدركها من قبل، فجربتها مع الفتيات، فزادت شعبيتي بصورة خرافية، وتنقلت بين المجموعات الطلابية أو لِنَقُل "الشِّلَل" بمنتهى السرعة، حتى وصلتُ إلى أعلى وأرقى الطلاب؛ طبقة المحبوبين، أو محط الأنظار.

وكان ما حدث عبارة عن وضع طبيعي؛ الكل يحب مَن يستمع إليه وينبهر، الكل يبحث عمَّن يصدق أكاذيبه ويصفق لقراراته الخاطئة، بالأخص الفتاة، فلم تُخلق بعدُ الأنثى التي لا تحب مَن يستمع إليها بتركيز وينفعل مع قصصها ويتعاطف مع مشاكلها البلهاء، أما لو واساها في قراراتها الخاطئة وأقنعها -أو أمَّن على قناعتها- بأن الخطأ ليس من عندها، بل هم الآخرون أو المجتمع أو أي شخص آخر هو المخطئ ما عداها.. مَن يفعل ذلك فقد ملك عليها وجدانها ولا تتخلى عنه مقابل كنوز العالم!

وقد فعلتُ كل ذلك وشعرتُ معه لأول مرة أني ربما أجد بعض السعادة.

لكن هيهات!

أتوا أفواجًا لمقام روحي ليتخففوا من أوزارهم وحمولة أرواحهم، ولما تأكدوا أن ما يقال يبقى حبيس نفسي، فتكلّم الكل بلا محاذير، وحكى.

الكل حكى ذنوبه وأوجاعه، الكل ألقى داخلي قاذوراته؛ فرأيت الناس على حقيقتها، أصبحتُ أخافهم أكثر، وزاد تقوقعي على نفسي أكثر فأكثر، فلم أجد مَن يسمعني أنا أو يتحمل معي ما فيها من تشوّهات فانعزلت.

حتى انتهت سنوات الكلية ومعها حدثت المعجزة؛ وجدتُ مَن تُحبني أخيرًا.

فتاة لا مليحة ولا قبيحة تعلّقت بشاب يُمثّل طموحاتها كلها. وسيم، خفيف الظل، يقلد طريقة وحركات الممثل أحمد السقا في مشيته وكلامه، بل ويتقمّص ما هو مشهور عنه من "جدعنة" وِلاد البَلَد، حتى ليكاد أن يضع مثله شامةً على جبينه.

تقاربا، ارتبطا، أحبته، ألقاها في أقرب سلة مهملات عندما دقّ قلبه لأخرى، أتت إليّ تُلقي في سلة مهملاتي بقايا عشقها، وأنا استمعت كالعادة ودافعتُ عنها، وقلتُ ما أراح قلبها.

كم هو وغد، تلاعبَ بمشاعرها، وكم وكم وكم...

ولأول وآخر مرة أفضى الاستماع إلى تعلُق، فقد وجدَت في أذني ضالتها، أخيرًا رجل لا يتكلم، بل يستمع فقط، ولو تكلم فهو يقول ما يُرضيها، فأخذَت تتكلم بلا توقف على مدار الشهور، فاستعادَت تألُقها وسمَمت روحي.

ولكنها تعلّقت بي، ويومًا ما بلا أي مقدمات ألقتها في وجهي قائلة: "أنا أحبك"، فدون تفكير وجدتُ نفسي أقولها بالمثل دون أدنى شعور بها، ربما كنتُ أخاف ألا أقولها للأبد!

- أنا أيضًا أحبكِ!

وتزوَجنا بعد المزيد من الخوف.

خفتُ أن يرفضني والدُها، خفتُ أن ترفضها والدتي، خفتُ أن تبتعد عني، خفتُ أن أقترب أنا منها.

ولكن تم المراد.

وفي ليلة العرس، خفتُ ألا أقدر على المطلوب؛ فأنا عديم التجربة ولكن للعجب استطعتُ، وهنا لا تكتمل فرحتي؛ فهي لم تكن عذراء!

حتى عندما رضيتُ بأي امرأة لمجرد أن أعيش إحساس الحب والزواج، أكلتُ بقايا غيري، بعدما قطف هو الزهرة وترك لي الشوك، وكالعادة خفتُ من الفضيحة ولم أتكلم، واكتفيتُ بنظرة عتاب مرتخية إليها.

لم تُبادلني إياها بنظرة اعتذار حتى!

خفتُ أن أكون الفشل المجسّد فأكملتُ حياتي الزوجية مع سيدة بيعت لي على أنها جديدة دون أن أمتلك الحق في مقاضاة البائع، وللدقة دون القوة اللازمة لمواجهته.

استمرت الحياة بين خوف وخوف حتى تعرّفت على الفتى الذي انتزع براءة زوجتي، وأصبح صديقي!

ولمَ لا، وبيننا الكثير من الأمور المشتركة، من بينها طبعًا زوجتي!

كل يوم أراه فيه ينظر في عينيّ بقوة، بتحدٍ، بانتصار كأنه يقول: "أنت تعلم أنك

تستعمل بقايا ما تركته لك".

وأنا أنظر إليه بخوف، بمهانة، باستكانة، برجاء ألا يفضح المستور.

وحملَت ثم أنجبت زوجتي، وخفت أن أسأل مَن هو الأب.

ثم حملَت ثم أنجبَت فتاةً، وخفت أن أسأل مَن هو الأب.

ثم رحلت، بلا مقدمات، رحلت وخفت أن أسأل: إلى أين؟

رحلت وتركتني، وأنا الآن خائف.

أنفاسي تتحشرَج وتفقدُ انتظامها، أشعر بالصقيع يغزو أطرافي، إنه الموت لا ريب.

أشعر به، أشمّه.

بل أراه!

أراه رجلًا له هيبة، وسيمَ الطلعة، يرتدي الأبيض، يُخالف كل ما تخيلته.

يمد يده لي، أتمسَك بقبضته القوية، يسحبني بحزم لكن بحُنوّ.

مهلًا.

أنا لست خائفًا.

أخيرًا!

10

قطعة السكر الأخيرة

أجلس لأنتظر دوري بصحبة أبي في عيادة الطبيب الشهير المزدحمة دومًا، تسليت بتأمل المكان المضاء بشكل مريح لتزجية وقت الانتظار الطويل، الأبيض والأزرق يغلبان على المكان من إضاءة الحوائط، الأثاث حتى ملابس الممرضة ذات الوجه المبتسم التي تنظم دخول المرضى، حتى أبي ارتدي طاقمه المفضل؛ قميص أبيض مترهل على جسده الذي نحل من جراء فقدان الوزن المصاحب لمرضه وبنطال أزرق يعيده إلى وسطه كل خطوتين يتحركهما.

شاشة تلفاز تعرض صورة فيديو متحركة لمناظر طبيعية خلابة يغلب عليها الشواطئ ولون البحر الشفاف الأزرق بدوره مع موسيقى هادئة مريحة للأعصاب أقرب إلى منومة.

أدركت أنها بالفعل كذلك عندما تعالى صوت خفيض من أبي الذي انزاح رأسه على صدره وغطَّ في سِنَةٍ خفيفة، تبسمت مشفقًا وعدلت رأسه فاستفاق وقال كلمته الشهيرة بانتفاضة بسيطة:

لم أنم.

ربتُّ على كتفه مطمئنًا فاستراح وسرح يتأمل منظر الطبيعة على الشاشة وجفناه يقاومان التلاقي، لازمته جملة (لم أنم) منذ تطور مرضه وتكررت نوبات نومه في أوقات غير متناغمة من اليوم، سحبتني الذكريات لجلسة مشابهة؛ أنا وهو في نفس المكان، نفس الانتظار، حتى أبي بنفس الهندام الأبيض والأزرق وإن كان وقتها أطول وأعرض بطريقة ما رغم عدم انقضاء وقت بعيد (ملء هدومه) كما يقولون. يومها هو اليوم الذي بدأنا متابعة حالته مع الطبيب.

يومها دخلت على الطبيب الغرفة البيضاء الزرقاء بدورها محمَّلًا بكل التحاليل والأشعات والتقارير المطبوعة والمصورة والمضغوطة على أسطوانة إلكترونية، كلها ...لم أغفل ورقة واحدة منذ بدأت حالة أبي في التدهور وسقط مصابًا بعدة جلطات متفرقة بسبب مضاعفات السكرى اللعين، بعد السيطرة على الحالة

وخروجه من العناية الفائقة وإذابة اللعنات المسماة الجلطات، تأثرت قدرته على الحركة والقيام بعناية نفسه الشخصية ما بالك بالعمل، نصحوني (أولاد الحلال) بهذا الطبيب فائق الشهرة شديد المهارة، فحضرنا وجلسنا وانتظرنا ودخلنا.

قابلنا ببذلته السماوية المغطاة بمعطف الأطباء الأبيض التقليدي وببسمة رقيقة مطمئنة على وجهه الوقور الخبير فاطمأن بالي بعض الشيء، وقف ليستقبلنا وأصر على مصافحة أبي بيده رغم صعوبة رفعها، وطلب منه أن يشد أصابعه فلم يستطع الأخير، غير أن الطبيب داعبه قائلًا:

قبضة قوية يا حاج، لا بد أنك كنت مصارعًا في شبابك.

-بل ملاكم... أيام الجامعة.

وكان استفسار الطبيب هو جرس بداية جولة الملاكمة في شباب أبي المغدور، فانطلق يشرح ويستطرد في وصف بطولاته وصولاته والحلبات التي ارتجت بضرباته القاضية وقد انتابته الحماسة عندما شجعه الطبيب ببسمة صامتة وتعليق مجامل فلم يتوقف، ظل يتكلم أكثر مما يحتمل الظرف أو وقت الطبيب بلا كلل كأنما سر أبي بوجود من يسمع ثرثرته المتكررة التي لازمته مع سقطته الأخيرة.

لم يتململ الطبيب ولم يقاطع، بل استأذنه في النظر للتقارير وأوراق حالته وهو يحكي، فلم ينتبه أبي لتعليق الطبيب بل استمر يحكي ويحكي بلا توقف وعيناه سارحتان في الفراغ المنتمي لزمن ولَّى، حتى ولو كنا أنا والطبيب لا ننظر إليه.

لكنه استمر وانخفض صوته بالتدريج لينسحب لخلفية مشهد الطبيب الذي تركز كياني عليه.

فقد كان الأخير يتأمل ما على مكتبه باهتمام وأنا أتأمل ملامحه هو باهتمام أشد بحثًا عن أي تعبير في قسماته البشوشة، تقطيبة، زفرة، لمعة عين، انفراجة شفة، أي بادرة طمأنينة تريح قلبي نحو آخر أفراد عائلتي.

خُيِّل لي أن الوقت تجمد، الطبيب يحدق في تقرير بعينه كأنما يفك شفرة لغة عتيقة، وأنا أحدق في ملامحه بتركيز وأبي صوته يتباطأ رويدًا رويدًا في ذهني، حتى رفع الطبيب وجه الضحوك ورسم على ملامحه بسمة مطمئنة فعادت

الموجودات والأصوات لسرعتها الطبيعية، بل عاد تنفسي لانتظامه.

بدأ الطبيب بذكاء مقاطعة أبي عن الاسترسال في حكاياته، وطلب منه إجراء بعض الحركات التي تبدو بسيطة لأي شخص معافى، فرد ذراع، ثني أصبع، بسط اليد مثل أجنحة النسر يمنة ويسرة، ولاحظت تركيزه على الجانب الأيمن الذي أصابه شبه عطب، رأيت بعيني ما أنكرته طوال الفترة السابقة، الجمل برك ولم يعد الوحش المسمى أبي ملء السمع والأبصار، بل صار بقايا رجل هزمه المرض أو الحياة أيهما أقرب!

ذراعه ترتعش ولا تنثني، أصابعه لا تنقبض، لسانه لا يعتدل.

لكن الطبيب وبنفس الهدوء ونفس الابتسامة المشجعة شرح لأبي أن كل ذلك زائل، ولم يكتف بكلمات قليلة بل أسهب في شرح ووصف وحكي عمن أصيب بنفس الأعراض، ولم يتعاف فقط بل طلب منه ترشيح عروس صغيرة ليجدد بها شبابه، عندها ارتسمت ابتسامة واسعة علي شفتَي أبي كانت بالنسبة لي أقرب لصوت قهقهته أيام العنفوان.

حول الطبيب دفة الحديث ببراعة نحو الخطة الموضوعة التي سنتحرك من خلالها حتى نسترد عافيته وقدراته على القيام بالمهام الطبيعية، مع التقليل من المجهود وعدم القيادة أو الذهاب للعمل في الوقت الحالي، ولما لاحظ بوادر اعتراض على ملامح أبي واستعداده للرفض القاطع، سبقه وشدد على كلمة (الوقت الحالي) وهو يفتح كفه مهدئًا لثورة لم تنطلق من عقالها بعد.

بدأ في رسم ووضع التعليمات مع انتقاء شديد الذكاء للألفاظ بحيث لا توحي لأبي بعجز أو تقييد حركة بقدر الإيحاء بصيانة مؤقتة لأجزاء الجسد في سبيل انطلاقة أقوى مما سبق.

لانت ملامح أبي ولكني لاحظت أن الرجل لم يتطرق قط لتشخيص الحالة، لف ودار حول الموضوع بشكل سحري خلب لب المريض ولكنه لم يفعل معي؛ غير أن السبب تجلى عندما طلب الحمام صديق كل مريض سكري من أبي زيارة تبول سريعة، بمجرد اختفائه وراء باب غرفة الكشف تحولت ملامح الطبيب الوقورة الباسمة لمتجهم جاد وصرَح بكلمات مقتضبة بما كنت أخشاه:

الحالة متقدمة، نحن لا نتكلم هنا عن مريض قلب مصاب بمشاكل في الأوعية؛ بل عن مريض مضاعفات سكري متطور، الأوردة متهتكة، عضلة القلب متضخمة، قدرة القلب نفسه لا تتجاوز الثلاثين بالمائة، ونحتاج لمراجعة طبيب عيون متخصص؛ فهناك تأثير مباشر متوقع في مثل هذه الحالات على شرايين العين مما سيؤثر بالسلب على الرؤية، و... و....

صكت أذني عن كلامه فلم أعد أسمع إلا همهمة غير مفهومة عندما دارت الدنيا بي، غامت في عيني من قطرات الدمع المحبوسة وأصبحت أجاهد للاحتفاظ بثبات عقلي ووعيي.

لكني أفقت مع توقف الكلام لهنية وتشديده على جملة واحدة مركزة قالها بلهجة ذات مغزى واضح:

قنبلة موقوتة، ولا نعلم بالتحديد متى ينطلق مؤقتها. كل مهمتي هو تأخيرها قدر المستطاع، لكنها ستنطلق لا محالة.

ما إن ختم جملته حتى سمعنا طرقة واحدة خفيفة مركزة ميزت فيها ضربة مفصل أصبع أبي علي الباب، فتح بعدها ودخل متثاقل الخطوات مبتل البنطال بماء الطهارة!

هنا تحولت لهجة وملامح الطبيب العطوف في لمح البصر، كممثل محترف عاد لتصنع البهجة وأكمل شرح باقي خطة العلاج لأبي، الذي تجاهله وركز – ببقايا دقة ملاحظته المعهودة من الأيام الخوالي - على ملامح وجهي المكفهر ودموعي المكبوتة متسائلًا عما ألمّ بي، لكني سحبت منديلًا من الطاولة بلا استئذان ومسحت عيني ثم تحججت بحساسية الجيوب الأنفية وتغيير الفصول، فعاد أبي بنصف انتباه للطبيب ونصفه الآخر معي كأنما لم تنطل عليه الحيلة.

لكن الأخير عاد فسحب جل انتباه مريضه، بدعابات تغلف تعليمات؛ ترسم حياة صارمة تفتقر لكل المتع التي يقدسها أبي، من طعام دسم، عمل شاق، تدخين، جنس ولو حتى في أضيق الحدود.

كل ذلك تجاوزه أبي إلا الأخيرة. فقد سجل اعتراضًا واهنًا بأنه ما زال في الخمسينيات ويتمتع بعنفوان ثور، لمحت شبح ابتسامة مشفقة على شفتي الطبيب

لم تنتقل لصوته الذي أقن على كلام أبي، وشدد بأن كل ذلك وضع مؤقت يعود بعده ليهز أركان الحليات.

ارتاح لكلمة الطبيب كأنما سره، عدم معرفة الناس بسره المصاحب لمرضه.

لكن ثورته الحقيقية كانت عندما شدد الطبيب على منع السكر الأبيض بكل أنواعه، لا تقليل، لا تحجيم، بل منع كامل. كنت أعرف عادات أبي الغذائية المتحورة حول الحلوى، فهو يقدر على قطع كل شيء، يمتلك إرادة فولاذية نحو أي شيء يرغب في منعه، حتى السجائر اللعينة يستطيع مقاطعتها للأبد ... إلا السكر.

هو نقطة ضعفه الكبرى والأولى والأبدية، ورث حبه – كما يقول- من أبيه وأجداده، لم يكونوا من عشاق السكر فقط، بل من تجاره أيضًا، فقد كان جده من كبار مصنعي العسل الأسود من سكر القصب في الصعيد، وأبوه ورث مهنته وطورها لمصنع مختص في ذلك، حتى جاء أبي ونقل الموضوع ليصبح علامة تجارية مختصة في كل ما هو حلو المذاق من عسل وحلاوة طحينية ومشتقاتها.

فنشأ أبي على تقدير ومحبة وتذوق السكر، فأصبح جزءًا غير قابل للاقتطاع من حياته، حتى عندما أصابته وعكة بسيطة مبكرة اكتشف معها إصابته بالسكري أثناء طفولتي، كان يهرب من قبضة أمي الصارمة بالذهاب للعمل وتناول ما يشاء هناك، ولم يكن أي من عماله يستطيع منعه فهو من يفتح بيوتهم.

ولم يكتف بذلك؛ بل كان في أيام الآحاد المتزامنة مع إجازة المصنع الأسبوعية يفضل إحضاري من المدرسة بغرض إراحة أمي قليلًا – كما كان يدعي وقتها- ولكن السبب الرئيسي اكتشفته عندما كنت أركب بجواره السيارة الفاخرة – بمقاييس التسعينيات المجيدة - المرسيدس (التمساحة) وأعثر أسفل المقعد على أغلفة الشكولاتة المفضضة البراقة، أو بعض فتات البسكويت المتعلق بشاربه الكث فاحم السواد آنذاك.

عندها كان يمد يده في جيب بنطاله الأزرق الأثير ويعطيني واحدة من نوعه المفضل وهو يتلفت حوله مشددا على أن ذلك هو سرنا الصغير.

كل هذه الذكريات أخبرتني كم ستكون الأيام القادمة قمة في الصعوبة.

لكن الطبيب قابل ثورة أبي بذكاء؛ عندما رسم معالم الأسف على وجهه وقال:

مما فهمت من كلامك يا حاج، العمل هو أهم مقومات حياتك، يؤسفني القول لو لم نقدر على تحجيم السكري فلن تستطيع ممارسة عملك كما كنت.

هنا كدت أن أنتفض واقفًا مصفقًا محترمًا ذكاء الطبيب، فأقصى طموحاتنا الآن هي تجاوز مضاعفات الجلطات وبقاء الوضع مستقرًا، ولو عاد نصف جسده للعمل بشكل طبيعي وخفت تلك الارتعاشة فهو إنجاز غير مسبوق، لكن الرجل لم يتكلم عن هذا، بل زرع جذور الأمل في نفس مريضه بتجاوز كل ذلك الألم والمرض والعجز، بل والعودة لكامل عنفوانه إلى درجة ممارسة عمله الشاق.

وكما توقعت الكارت الذي ألقاه الطبيب آتى أكله، فتحولت ملامح أبي بطريقة سحرية من ثورة والرفض، للتصميم والقبول.

جلسنا لربع ساعة أخرى نحدد تفاصيل العلاج والأدوية المقترحة ومواعيد المتابعة، وقبل انصرافنا وأنا أغلق باب غرفة الكشف تلاقت عيناي أنا والطبيب فلمحت فيهما بسمة متعاطفة شبه مطمئنة شبه مشفقة.

في طريق الخروج من المكان لمحت تعلق عين أبي بأضواء محل العصائر الشهير متعدد الفروع الملاصق للعيادة، وبالتحديد نظراته المثبتة علي نوع معين يعشقه في القائمة. خليط من الفواكه والعصائر مع كمية ضخمة من الآيس كريم المغطى بطبقه من السكر المحروق!

عدت من ذكرياتي على صوت الممرضة الرقيق يدعونا للدخول، فقمت أتأبط ذراع أبي لأساعده على الحركة نحو الباب، بمجرد دخولنا قابلنا الطبيب ببسمته الودود وقام من مقعده ليستقبلنا فصافحني أولاً، ثم صافح أبي بكلتا يديه كأنما هو صديق لم يره منذ مدة، مع أننا لم ننقطع عن ميعاد المتابعة الدورية ولا حتى مرة واحدة طوال الفترة الماضية، أزاحني الطبيب بلين وأجلس والدي بنفسه على المقعد وجلس أمامه وليس على مكتبه كما هو معتاد، تلك كانت إحدى الملاحظات العديدة التي سجلتها في ذهني عن طريقة الطبيب التدريجية في إزالة الحاجز بينه وبين مريضه، فيتحول بالتدريج من زيارة طبية ثقيلة إلى لقاء دوري بين صديقين.

عزز تلك الملاحظات سؤال الطبيب عن الأحوال والأحفاد والثناء على ملابس أبي البيضاء والزرقاء دون التطرق للكشف أو المتابعة إلا بعد حين، عندما لانت ملامح أبي المتوترة؛ فقد تصاعدت عليه حدة الآلام مؤخرًا وارتفعت وتيرة الغفوات ولم يعد قادرًا على التحكم في مثانته في أحيان كثيرة، مما زاد من عصبيته فتحول إلى كتلة نارية مشتعلة، يهاجم الجميع، يسب ويعنف الكل، بلا اعتبار لمكانة أو مكان أو حتى حدث.

كثيرًا ما كنت ألمح نظرات الشفقة من الجيران عندما أعود إليهم لأطيب الخواطر وأمسح ذنوبًا لم أرتكبها بعد معركة من معاركه معهم بلا سبب هام.

بدأ الطبيب/ الصديق في مطالعة التحاليل والتقارير والأشعات الدورية بلا انفعال كالعادة، صمت منه، ترقب من أبي، تركيز مني.

بعد فترة انفرجت أساريره، وتبسم بما يقارب الضحك وهو يربت على فخذ أبي بقوة نسبية مداعبًا:

يا راجل يا عجوز، صحتك في تحسن ملحوظ!

لم نصدق فاستفسرنا، لكنه أكد على ذلك، بل وصرح بأنه سيخفف من جرعات بعض الأدوية، فانتقلت عدوى التفاؤل والمرح منه إلى أبي الذي التفت إليّ وقال بصوت مشروخ من بحة الفرح:

ألم أقل لك أني (زي البمب) يا ابن الكلب؟

ابتسمت أنا الآخر لدعابته، فهو لا يسبني بها إلا إذا كان رائق المزاج.

جلسنا براحتنا وقد خفت حدة توتر الدخول، حتى اطمأنّ الطبيب على كل الأحوال، وقمنا لنرحل وقد رفض أبي أن أتأبط ذراعه في الخروج مثلما كان الدخول، وقال ما معناه إنه أفضل حالًا مما أتى.

وأثبت كلامه بأن سبقني للخارج، صافحت الطبيب قبل أن أخرج، لكنه لم يفلت يدي، بل شد عليها بقبضة حديدية، وثبت عينيه في عينيّ بتجهم، ثم قال بصوت متجهم مقتضب:

لا تحرمه من أي شيء ...

انتفضت للوراء مفلتًا يده وقد أدركتُ مغزى العبارة، هز رأسه مؤكدًا بهمس على ما فهمت:

مسألة أيام!

غامت الدنيا أمام عيني لكني أفقت على صوت أبي المرح ينادي من جديد فلحقت به.

فوجدته لم يتخل عن مزاجه الرائق وإن كانت قدماه قد تخلت عنه. فاستند للحائط يتحرك بحزانه في طريق الخروج، لحقت به وتأبطت ذراعه فتركه لي هذه المرة، ظللت أستمع لكلامه عن صحته التي تحسنت بعد خروجه من عند صديقه وكم كان محقًا بشأن العلاج معه - رغم معارضته السابقة لمبدأ العلاج من الأصل- وكم أنا محظوظ لأنه سيتعافى قريبًا وسيعود لإدارة المصنع وينزع عن كاهلي ذلك العبء الذي أشاب رأسي على حد قوله.

أثناء خروجنا من باب المبنى حانت منه التفاتة نحو محل العصائر الذي خاصمه بسبب المرض لفترة طويلة، وثبتت عيناه لجزء من الثانية على اسم مشروبه المفضل في القائمة المعلقة على الحائط لمحت فيهما شبح ابتسامة حنين، هنا تسمرت قدماي في مكانهما حتى كادت قدما أبي أن تختل بسبب تغير إيقاع خطواتنا المتسق، فالتفَّ إلى متسائلًا، فقلت وأنا أغالب دموعي وأرسم المرح على ملامحي:

احتفالًا بقرب الشفاء، لماذا لا (أعزمك) على مشروبك المفضل؟

ما إن أنهيت جملتي، حتى أنارت الشمس في وجه أبي، فأشرق وتبسمت كل ملامحه في تعبير يجمع بين السعادة وعدم التصديق والانبهار الطفولي، أومأت مؤكدًا على ما قلت وتأبطت ذراعه من جديد صوب كرسي بلاستيك أزرق داخل المكان، أجلسته وطلبت له ما اشتهاه وأضفت كل الإضافات المتاحة وبالحجم الكبير أيضًا!

عدت وقدمت له العلبة البلاستيكية المترعة بالعصائر والفواكه والمثلجات من كل صنف ولون مزينة بقطع متبلورة من السكر المحروق، نظر إليَ متسائلاً بدموع

فرح تتراقص في عينيه، فمددت له يدي فاختطف العلبة بيد مرتعشة واندمج في أكلها بكل أحاسيسه، يشمها ويشاهدها ويتذوقها ويلمسها.

شاهدته بعين مغبشة من الدمع المتراكم فيها يتناول بكل جوارحه... قطعة السكر الأخيرة.

في صباح تلك الليلة، لم يرتدِ أبي الأزرق والأبيض.

بل ألبسته بيدي آخر ما أخذه معه.

ثوبًا أبيض.

فقط.

تمت

شكرٌ خاص

لم يكن العملُ ليخرج بتلك الصورة المشرّفة لولا مجهودات وإرشادات كثير من الأحبّاء.

كل الشكر لهم بقدر مقامهم وقُربهم لقلبي.

بلا ترتيب.

الصّديق الروائي والسيناريست/ عمرو حسين؛ صاحِب الرأي السّديد.

الكاتِبة الشابّة والسيناريست/ سَما هاني. جَزيلُ الشُّكر لملاحظات عَينكِ الحسّاسة.

البوكتيوبر والقارئ المُحترف/ يُسري عفّت.

البوكتوكر والقارئة المميزة/ إكليل.